اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية

تأليف

أ.د. عطية القوصى

سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية
يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة
تحت إشراف أ.د/ محمد خليفة حسن

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالي جوهر

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د. أمير إمام ناصف

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

القارىء الكريم

يسر مركز الدراسات الشرقية أن يقدم الكتاب الثانى فى سلسلة « فضل الإسلام على اليهود » وهو كتاب اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية » لمؤلفه الأستاذ الدكتور عطية القوصى أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وهذا الكتاب يعبر عن قيمة حضارية كبرى وعن موقف حضارى من أمة متحضرة تجاه جماعة من الجماعات الإنسانية التى عاشت فى ظل الحضارة الإسلامية وهى الجماعة اليهودية ، والتى يعبر سلوكها تجاه الأمة الإسلامية وحضارتها عن موقف غير حضارى وغير إنسانى . وقد عبر الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى فى تقديمه للطبعة الأولى من هذاالكتاب عن هذا الموقف الحضارى الإسلامى بتحديده لقيمتين عظيمتين من قيم الحضارة الإسلامية : قيمة الأخوة الإنسانية وقيمة التسامح العقائدى .

إن حياة اليهود فى الدولة الإسلامية وصلت إلى درجة من الازدهار والتقدم دفعت بعض المؤرخين اليهود الى اعتبار حياتهم فى الدولة الإسلامية تمثل العصر الذهبى فى التاريخ اليهودى . وهذا الكتاب يقدم الأدلة الدامغة على صدق هذه المقولة . ففى ظل التسامح الإسلامى تمتع اليهود بكل الحقوق الدينية والمدنية ، وحققوا مكانة اجتماعية واقتصادية عظيمة ، وتولوا المناصب الهامة ومنها منصب الوزارة . وبزغ من بين رجالهم علماء وأطباء وفلاسفة وفقهاء تعلموا على يد العلماء المسلمين ، وارتفعوا بشأن قومهم ، وأداروا شئون حياتهم فى ظل رعاية إسلامية شرعية باعتبارهم أهل ذمة وأهل كتاب .

ويغطى هذا الكتاب معالجات متنوعة للحقوق المدنية والدينية لليهود فى العصرين الفاطمى والأيوبى وللوظائف الدينية والسياسية لليهود فى ظل الدولة الإسلامية ، وللدور اليهودى فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية ،وأخيرًا معالجة لأوضاع اليهود فى ظل الحكم الإسلامى بالأندلس .

وتشير كل صفحة من صفحات هذا الكتاب إلى فضل إسلامى على الجماعة اليهودية ، وإلى تأثير إسلامى حضارى على الثقافة اليهودية بما يؤكد الموقف الحضارى الإسلامى المبنى على أساس من قيمتى الأخوة الإنسانية والتسامح العقائدى . وأملنا أن يتعلم يهود اليوم الدرس من تاريخ علاقتهم بالإسلام وبالحضارة الإسلامية فى الماضى ، فإذا كان التسامح الإسلامى قد أعطاهم فرصة للعيش والاستمرار فى الوجود فإن العنصرية الصهيونية فى الحاضر ستؤدى إلى نهاية التاريخ اليهودى .

وأخيرا يتوجه مركز الدراسات الشرقية إلى الأستاذ الفاضل الدكتور عطية القوصى بالشكر الجزيل لسماحه بإعادة طبع هذا الكتاب لأهميته الكبيرة فى بيان فضل الإسلام والحضارة الإسلامية على اليهود واليهودية . وهو كتاب سينتفع به المهتمون بتاريخ العلاقات اليهودية الإسلامية وبأوضاع اليهود فى ظل الدولة الإسلامية .

والله ولى التوفيق

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة.

مقدمة

تحت ظل راية التسامح الإسلامى عاش اليهود عيشة طيبة وتمتعوا بحقوقهم المدنية والدينية كاملة دون نقصان ، ولقى اليهود من المسلمين كل المودة والعطف والحماية وقت أن لقوا الاضطهاد والتشريد والتنكيل من شعوب أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى. وأعطى لهم حكم الإسلام حق المشاركة فى العمل وحق الكسب وجمع الثروة وتولى وظائف الدولة . فعملوا فى حرية وكسبوا مكاسب لا حدود لها وجمعوا ثروات طائلة وتولوا مناصب هامة فى الدولة ووصلوا إلى الوزارة نفسها وشاركوا فى التعلم على يد أساتذة المسلمين فخرج منهم علماء فى الطب والفلسفة والفقه والتشريع .

وفى بحثنا هذا سنقدم الدليل على ذلك من خلال رؤى أربعة ، شملت الأولى الحقوق المدنية والدينية لليهود عامة وفى العصرين الفاطمى والأيوبى خاصة، ولقد شمل الخصوص هذين العهدين لتوافر المصادر فيهما عن يهود العالم الإسلامى .

وشملت الثانية وظائف اليهود الدينية والسياسية فى ظل الدولة الإسلامية. وشملت الثالثة دور اليهود فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية ونشاطهم خاصة فى مجال الصيرفة والجهبذة ، وشملت الرابعة اليهود فى ظل حضارة الإسلام فى الأندلس. وبذلك تكون الرؤية شاملة شملت أحوال اليهود فى مشرق الدولة الإسلامية وفى مغربها .

وبقدر ما أتيح لى من مادة علمية حاولت معالجة هذا الموضوع الجديد القديم . ولا أستطيع أن أدعى بأننى وفيت الموضوع كل حقه لأن الموضوع يحتاج

إلى جهود وجهود ، ولكن كل الذى أستطيع أن أقوله أننى أقدم إلى يهود اليوم دليلا علميا يضاف إلى الأدلة الكثيرة ، على تسامح الإسلام والمسلمين مع أجدادهم وقت أن كانوا رعايا لهم ، وعلى حماية المسلمين لهم وقت أن تعرضوا للاضطهاد والشتات فى كل العالم و فتحهم أبواب بلادهم على مصراعيها لهم وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وذلك لأن الإسلام نادى بحرية الإنسان أيا كانت ملته وأيًا كان لونه وهويته والإسلام رفع راية التسامح والمساواة ونادى بحق كل الناس فى الحياة .

هذا ما أردت وأرجو أن أكون قد وفقت.والله ولى التوفيق ،،،

المؤلف

الفصل الأول

الحقوق المدنية والدينية

لليهود فى العصرين الفاطمى والأيوبى

لما جاء الإسلام أبطل الأكراه فى الدين ولم يقبل من الناس إلا من يدخل فيه طواعية واختياراً ، ودخل الإسلام من أراد دخوله مختارا وبقى بين المسلمين من أهل الذمة على دينه فى حرية تامة ومساواة بينهم وبين المسلمين فى أمور الدولة عموماً فكان لهم مثل ما للمسلمين وعليهم مثل ما عليهم. تؤخذ منهم الجزية للمصالح العامة كما تؤخذ الزكاة من المسلمين لهذه المصالح .

ويصر الإسلام على وجوب اصطناع الرفق مع رعايا الدولة الإسلامية ممن لم يعتنقوا الإسلام ويوصى بحسن معاملتهم والتزام العدالة معهم تنفيذا لوصية الرسول العادل الكريم الذى قال : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه »[1] .

والروايات الواردة عن الخليفة عمر - وهو الشديد فى الإسلام - فى رأفته بأهل الذمة كثيرة وهو الذى وضع لهم عهدا نسب إلى اسمه[2] تكفل لهم فيه بالحرية الدينية وبالمساواة المدنية الكاملة مع المسلمين فى الحقوق والواجبات[3] .

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمة بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادهم وأن يأمروا بصيانة دور عباداتهم[4] .

وكان فى الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص فلا يجوز للمسيحى أن يتهود ولا لليهودى أن يتنصر ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان دخولا فى الإسلام .

ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا العكس كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ولا المسلم يرث غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا . وقد أصد رالخليفة المقتدر العباسى سنة ٣١١هـ ٩٢٣م كتابا فى المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته[5] .

أما حياة الذمى فإنها عند الأمامين أبى حنيفة وابن حنبل تكافىء حياة المسلم وأن ديته هى نفس دية المسلم[٦] . ويقال أن النبى (صلى الله عليه وسلم) والخليفة عمر قد أباحا دم المسلمين الذين يقتلون أهل الذمة غيلة . ولقد طالب كل من الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان بدية الذمى كاملة غير منقوصة كما فى حالة المسلم تماما[٧] .

ولقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم على أنه كان من حق الذمى أن يستأنف الحكم أمام المحاكم الإسلامية أو أن يلجأ من أول الأمر إليها إذا رغب ذلك[٨] .

وأظهرت وثائق الجنيزة اليهودية[٩] أن قضايا اليهود المدنية كانت تنظر فى عهد الفاطميين أمام قضاة يهود ، وأن اليهود كانوا يستأنفون بعض أحكام هؤلاء القضاة اليهود أمام قضاة مسلمين[١٠] . ويقول الرابى بتاحيا أن رؤساء اليهود فى الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرؤسيهم حتى ولو كان أحد طرفى الخصومة مسلما ، وأنه كان بالموصل سجن يسجن فيه اليهود[١١] .

ولم يكن اليهود منبوذين فى الدولة الإسلامية مثلما كان حالهم فى مجتمع أوروبا العصور الوسطى يسكنون فى أحياء خاصة بهم مغلقة عليهم[١٢] (عرفت بالجيتو) ، بل كانوا يسكنون مع المسلمين أن شاءوا ذلك لأنه لم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لغير المسلمين بحيث لا يتعدونها[١٣] .

ولم يغلق التشريع الإسلامى أمام أهل الذمة أى باب من أبواب العمل والكسب بل أعطاهم الإسلام فرصة المساهمة فى جميع نواحى الحياة شأنهم فى ذلك شأن المسلمين[١٤] . ولذلك رسخت أقدامهم فى الصنائع التى تدر الأرباح الوافرة فكانوا تجارا وصيارفة وجهابذة وأصحاب ضياع وأطباء[١٥] . ولقد شهدت على ذلك وثائق الجنيزة اليهودية وأشادت بتسامح المسلمين وعدالة حكمهم وحفاظهم على حقوق الإنسان أيا كانت ديانته[١٦] .

وكان الإسلام يكتفى مقابل حماية الذمى بأخذ الجزية منه والتى قدرت للغنى المقتدر بدنانير ثلاثة وللمتوسط الحال دينارين وللفقير ديناراً واحداً .

وكان غالبية اليهود يدفعون الحد الأدنى من الجزية وشهد بذلك الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الذى زار العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى[١٧] . يقول بنيامين : «أن اليهود فى كل بلاد الإسلام لا يدفعون جزية إلا دينارًا واحدًا فى العام»[١٨] .

ويتفق معه فى ذلك الرابى بتاحيا فنجده يقول : « أن اليهود فى العراق لا يدفعون شيئًا للخليفة وإنما يدفع الواحد منهم فى كل عام دينارًا واحدًا لرأس الجالوت[١٩] » .

ولقد تمتع اليهود ، فى ظل الحكم الإسلامى بحقوقهم المدنية والدينية كاملة تمشيا مع سياسة التسامح التى كفلها الإسلام لأهل الذمة، وأصبحوا بذلك عناصر فعالة فى المجتمع تتمتع بحماية الشريعة الإسلامية[٢٠] . واستمرت هذه المعاملة الطيبة على الدوام ولم تتغير وتتعرض حقوقهم للنقصان إلا فى فترات قليلة تعرضوا فيها لبعض القيود فى اللباس وفى الركوب فى عهد بعض الحكام المتشددين أمثال الرشيد والمتوكل من الخلفاء العباسيين والحاكم بأمر الله ، من الخلفاء الفاطميين .

وذكر أبو يوسف فى كتابه «الخراج» أن هذه القوانين الخاصة بملبس أهل الذمة وبوسائل ركوبهم كان الغرض من قواعدها سهولة التمييز بين المسلم وغير المسلم[٢١] .

ولقد أصدر الخليفة هارون الرشيد أمرا سنة ١٩١هـ/ ٨٠٧م « بأن يؤخذ أهل الذمة فى بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم . فأخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات وبأن تكون قلانسهم مضربة وأن يجعلوا

أشراك نعالهم مثنية وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج ، ولا يترك أحد من أهل الذمة يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ولا فى هيئته»(٢٢) .

وأصدر الخليفة المتوكل سنة ٢٣٦ هـ بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالس العسلية والزنانير ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فليجعل عليها زرين . وكذلك أمر بأن يجعلوا على ما ظهر من لباس مماليكهم رقعتين لونهما يخالف لون الثوب الظاهر وأن تكون أحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى خلف ظهره وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونها عسليا ، كذلك أمر المتوكل بأن يقتصر اليهود والنصارى فى مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل والبرازين(٢٣) . كذلك شمل قراره منعهم من تولى الوظائف الحكومية ومنع ارسال اولادهم إلى مدارس أولاد المسلمين(٢٤) .

فى عهد الفاطميين تمتع اليهود والمسيحيون بحقوقهم المدنية والدينية كاملة غير منقوصة ذلك بفضل تسامح خلفاء الفاطميين وبسبب حاجة هؤلاء الخلفاء إلى من يعاونهم فى حكمهم الجديد الذى أقاموه فى مصر، ولقد رأى بعض خلفاء العصر الفاطمى، بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعى خالفوا به مذهب العباسيين، أنهم فى حاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم ، ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر أنصار الدعوة العباسية قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة(٢٥) ، واعتمدوا إلى حد ما على مساعدتهم فى حكم دولتهم(٢٦) .

ولقد أنفق هؤلاء الحكام أموالا طائفة على نفقة وصيانة المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية . وكانت أكاديمية بيت المقدس اليهودية – أعلى سلطة دينية فى عهد الفاطميين – تتسلم منحة ثابتة للنفقة عليها وصيانتها من قبل الخلفاء

الفاطميين الأمر الذى أعطى لهؤلاء الخلفاء الحق فى التدخل فى انتخابات هذه الأكاديمية[٢٧] . كذلك كان هؤلاء الخلفاء يعطون منحة مماثلة ثابتة لبيت تعليم الدين اليهودى بالقاهرة[٢٨] . وزاد تكريم الفاطميين لليهود بأن شارك خلفاؤهم فى مواسمهم واحتفالاتهم كما شاركوا فى مواسم واحتفالات المسيحيين[٢٩].

ولو تتبعنا حال اليهود وما اكتسبوه من حقوق مدنية ودينية فى عهد أهم خلفاء الفاطميين ، نجد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يبدى تسامحا عظيماً معهم ويستعين بكثير منهم فى إدارة دولته حتى عظم نفوذهم فى عهده ووصل أحدهم إلى أعلى مناصب بلاطه وهو يعقوب بن كلس[٣٠].

وكان المعز قد أسند إلى ابن كلس بعد إسلامه بعض دواوينه وارتقى فى مناصب الدولة حتى صار يحرز أكبر المناصب الإدارية فى عهد المعز ويصل إلى الوزارة فى عهد خلفه العزيز . وإلى ابن كلس هذا يرجع الفضل فى وضع قواعد الدولة الفاطمية ونظمها[٣١] .

ويذكر السامريون أن طائفتهم عوملت معاملة حسنة أيام المعز وأن المعز اختار حاكما سامريا من بغداد لحكم مدينة الرملة وهو أبو عبد الله السامرى وقد جعل هذا الحاكم ضمن خدمته عددا من السامريين .

وتميز عهد العزيز بالتسامح مع اليهود والنصارى ، وكان من أثر سياسة التسامح التى أتبعها نحوهم أن زاد نفوذهم فى عهده وأصبح فى دواوين الدولة كثير من كتابهم خاصة بعد أن عين هذا الخليفة يعقوبا بن كلس وزيرا له ومنشا إبن إبراهيم الخزاز اليهودى واليا على الشام وعيسى بن نسطورس المسيحى كاتبا له[٣٢] .

ولقد استاء المصريون المسلمون من استئثار اليهود والنصارى بمناصب الدولة وقدموا للعزيز الاحتجاجات على محاباته للمسيحيين واليهود[٣٣] ، ولما تبين

الخليفة حقيقة استئثارهم بمعظم السلطات عزل بعضا منهم وأحل مكانهم المسلمين ، على أن العزيز بعد ذلك أعاد بعضهم إلى وظيفته السابقة[٣٤] . وكان سلطان منشا قد شمل دمشق[٣٥] وحلب وأنطاكية وصيدا والرملة وتعاطف مع أبناء ملته اليهود هناك وقام بحماية جاءونية فلسطين والناسيين.

أما الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) فلقد تقلبت سياسته مع اليهود والنصارى فلقد بدأ عهده بالتسامح معهم ، ثم ما لبث أن انقلب عليهم، ثم تراجع أخيرًا وأبدى تسامحًا كبيرًا معهم. وترجع قسوة الحاكم مع اليهود والنصارى إلى ضغط الرأى العام عليه لما رآه الناس من محاباة الخلفاء الفاطميين لغير المسلمين .

بدأ الخليفة الحاكم بأمر الله حكمه سنة ٣٨٦هـ بالتسامح مع أهل الذمة متتبعا فى ذلك سياسة كل من المعز والعزيز معهم واستمر على ذلك طوال السنين العشرة الأولى من حكمه . إلا أن الكتاميين - وهم عصب الخلافة- تقدموا إليه مطالبين برفع اليهود والنصارى عن مناصب الحكومة وعلى نبذ سياسة التسامح معهم . فوافقهم على ذلك مضطرا وأصدر لذلك قوانينا جائرة ضدهم[٣٦] . ولقد وقف الكتاميون من اليهود هذا الموقف فى أعقاب الاشتباك الذى وقع بينهما فى أعقاب تشييع اليهود جنازة كبير علمائهم آنذاك العالم شماريا الحنان[٣٧] .

ولقد تعرض العائدين من اليهود من جنازة شماريا لقذف بالأحجار من قبل الكتاميين واشتبك اليهود معهم دفاعا عن أنفسهم فقامت السلطات بالقبض على ٢٣ من اليهود وكان من بينهم العالم اليهودى إسماعيل بن هوشانا[٣٨] (يوم السبت الثالث ٤٧٧٢ يهودية) وحبستهم وكان ذلك يوم سبت وفى صباح نفس اليوم قدم السجناء للمحاكمة وتعرضوا لاعتداءات بعض المسلمين المتعصبين وهم فى طريقهم للمحاكمة. ونادى هؤلاء المتعصبون بضرورة قتل هؤلاء اليهود فخاف اليهود على أرواحهم وتجمعوا عند قصر الخليفة وطلبوا العفو منه .

ولقد قررت المحكمة براءة اليهود بعد محاكمتهم وأطلقت سراحهم فشكل الحزان بوطيلى موكبا من اليهود لشكر الخليفة وطافوا فى شوارع الفسطاط وتوجهوا آخر الأمر إلى معبدهم الكبير وهنالك صلوا صلاة الشكر. وبسبب ذلك داوم اليهود على الاحتفال بهذه الأيام الثلاثة من كل عام وقرروا الصيام فيها. وفى يوم السبت الموافق لهذه الذكرى من كل عام يتجمع اليهود فى معبدهم وهم صائمون ليشكروا الله ويمدحوا الخليفة. ولقد أصدر الخليفة الحاكم أوامره بوقف العنف ضد اليهود. وقد مدح اليهود الخليفة الحاكم بأمر الله كثيرا لعدالته[٣٩].

وورد هذا المديح للخليفة الحاكم بأمر الله فى طومار عبرى وجد فى جنيزه القاهرة يرجع تاريخه إلى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م نشره نيبهور Neubauer فى (F.Q.R.V.Ix, PP. 24-26) وأعطانا كوفمان Kaufmann تفصيلات زائدة عنه فى (Z.D.M.G. L1, PP. 442-3) وجاء صدور هذا الطومار وغيره فى أعقاب أطلاق سراح الحاكم لليهود والعفو عنهم فى عقب حادثة جنازة العالم شماريا بن الحنان وقبل الاضطهاد الكبير الذى تعرض له اليهود فى السنوات الثمان الأخيرة من حكمه .

ومن المدح المذكور للحاكم فى هذا الطومار وفى غيره من أوراق الجنيزة نرى أن اضطهاد الحاكم لليهود لم يبدأ قبل عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م[٤٠] . ويؤيد ذلك ما ورد من أن معبد الفسطاط اليهودى لم يتعرض للهدم قبل هذا العام، فلقد ورد في وثائق الجنيزة أن يهود الفسطاط احتفلوا في معبدهم يوم السبت الخامس من هذا العام[٤١] كذلك مما ورد في خطاب الحنان بن شماريا الذي أرسله من الفسطاط إلى القدس ذاكرا فيه أحداث الاضطهاد في هذا التاريخ[٤٢].

وهذا يخالف ما ورد فى المصادر من أنَّ الاضطهاد وقع عام ٣٩٨هـ[٤٣] . تحكى المصادر أمن الحاكم أمر فى هذا العام اليهود بلبس أزياء خاصة عرفت بالغيار بوضع زنانير ملونة معظمها أسود حول أوساطهم ولبس العمائم السود.

كذلك أمرهم بحمل قرامى الخشب فى رقابهم وألاَّ يركبوا الدواب المحلاة بالسروج وألا يركبوا حمارا لمكار مسلم ولا سفينة ربانها مسلم وأن تكون الجلاجل فى أعناقهم إذا دخلوا الحمامات العامة ليتميزوا بذلك عن المسلمين.

وفى سنة ٤٠٨هـ خصصت حمامات خاصة لهم وأخرى للنصارى وتميزت حماماتهم عن حمامات النصارى بوضع القرامى عليها بينما وضعت الصلبان فوق حمامات النصارى[٤٤] وصدر أمر لليهود والنصارى بعدم تعلية بيوتهم على بيوت المسلمين[٤٥] .

وتشير بعض المصادر أن كثيرا من اليهود دخلوا مضطرين الإسلام بسبب هذه القوانين الجائرة ، وتضيف بأن الخليفة الحاكم سمح لمن لم يدخل الإسلام بالهجرة إلى بلاد الأغريق[٤٦] .

وتشير المصادر أيضا إلى أن هذه الاضطهاد بعد أن بلغ حدته خف وزال عن أهل الذمة قبيل اختفاء الحاكم . ففى سنة ٤١١هـ أصدر الخليفة الحاكم عدة مراسيم لاطلاق حرية الشعائر لليهود والنصارى. كذلك قام بمنحهم عهدا جديدا كفل لهم فيه الأمان والحرية[٤٧] . وعلى أثر ذلك ارتد عدد كبير من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام مضطرين إلى ديانتهم ، فيقول ابن زولاق[٤٨]. « أن أكثر من سبعة الاف يهودى ارتدوا إلى دينهم القديم فى يوم واحد. وعاد إلى مصر كثير منهم ممن هاجروا مضطرا » وهنالك وثائق فى الجنيزة ترجع إلى سنوات ٤٠٧-٤٠٩هـ/ ١٠١٦- ١٠١٨م تفيد بأن يهود الفسطاط واصلوا عبادتهم فى معبدهم حتى أيام الهدم والتخريب[٤٩].

وهنا لك وثيقة ورد اسم افرايم بن شماريا وكان مقيما في الفسطاط يعلن فيها أمام محكمة حكومية قوله : نحن يهود ولنا محاكمنا الخاصة»[٥٠] .

ولقد وجدنا اليهود سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م يسكنون فى الفسطاط فى حيهم قصر الشمع الخاص بهم[٥١] .

أما عن الخليفة الظاهر فلقد كان على النقيض من والده الحاكم بأمر الله بصدد سياسته نحو أهل الذمة ، فلم يكد يتولى الحكم فى مصر حتى عمل على اكتساب عطفهم بأن أصدر بيانا أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم[٥٢].

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ارتفع فى بدايته شأن أبى سعيد إبراهيم ابن سهل التسترى اليهودى[٥٣] . وتحيز التسترى لليهود فتقلدوا فى أيامه كثيرا من مناصب الدولة وتمتعوا فى ظل رعايته بالحقوق المدنية والدينية الكاملة[٥٤]. وجمع أبو سعيد ثروة طائلة[٥٥] .

ولقد أحرز اليهود مكانة هامة فى مصر فى عهد وزارة بدر الجمالى وابنه الأفضل بن بدر الجمالى .

وكان لثلاثة من رؤساء اليهود السياسيين المكانة عند هذين الوزيرين وهؤلاء الرؤساء هم : يهودا بن سعديا وأخوه مبارك بن سعديا والحبر بن موسى ويقين بن ناثينيال . وتحدثت وثائق الجنيزة عن عظم نفوذ هؤلاء الزعماء فى ذلك العهد. ولقد كان يهودا طبيبا بارزا ومقربا للوزير بدر الجمالى ومع الوقت أصبح طبيبه الخاص[٥٦] . كذلك كانت لمبارك مكانة فى البلاط الخلافى وخاطبه الملك الأفضل بلقب الناجد[٥٧] . وبفضل نفوذه تولى عدد كبير من رجالات اليهود وظائف حكومية هامة .

ولقد مات مبارك مقتولا، وبموته تعرض اليهود لخطر كبر بسبب تولى أمور الأفضل وزير مسيحى مفضل عنده وهو أبو البركات يوحنا بن أبى الليث ، متولى ديوان التحقيق (سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م) . ولقد عمل يوحنا على اقصاء كل اليهود من وظائفهم الحكومية وتعرضوا للاضطهاد طيلة الثلاث عشرة عاما التى حكم خلالها ، وتنفس اليهود بمقتله الصعداء[٥٨] .

وفى عهد وزارة الأفضل برزت شخصية موظف يهودى كبير هو أبو المنجا

ابن شعيا الذى كان مشرفا على شئون الزراعة فى الدولة ، ولقد اشتهر أبو المنجا بحفره القناة التى سميت باسمه وخدمت الزراعة فى الدلتا(٥٩) .

كذلك برزت فى ذلك العهد فى الفسطاط شخصية العالم اليهودى يوشع ابن دوسه(٦٠).

وكان الخليفة الفائز الفاطمى متسامحا مع اليهود والنصارى ويشهد على ذلك منشوره الذى أصدره إلى رجاله فى شبه جزيرة سيناء يأمرهم فيه بأن يشملوا الرهبان بالرعاية والعناية(٦١) .

وفى عهد الخليفة الحافظ ارتفع نجم رئيس الأطباء اليهودى أبو منصور إسماعيل بن حنانيا الذى نستطيع أن نتتبع نشاطه من خلال وثائق الجنيزة .

وتحكى المصادر اليهودية أن اليهود حرموا من بعض حقوقهم المدنية وتعرضوا للمتاعب فى أواخر عهد حكم الفاطميين أيام الخليفة العاضد(٦٢). وعموما فإن هذه الفترة من حياة الدولة الفاطمية كانت فترة عدم استقرار وفترة صراع بين وزراء الفاطميين وفترة ذعر وخوف على الإسلام من أعدائه بسبب تعرض العالم الإسلامى آنذاك لبداية الغزو الصليبى . فمن الطبيعى أن ينعكس هذا الحال على معاملة المسلمين لأهل الذمة ومن الطبيعى أن تفرض الدولة بعض القيود عليهم خشية تجاوبهم مع أعداد البلاد الصليبيين .

ومهما كان الأمر ، فإن كتاب اليهود يؤكدون أن وثائق الجنيزة اليهودية كشفت عن المعاملة الطيبة لحكام الفاطميين عامة تجاه اليهود ، وأشارت هذه الوثائق إلى احتفاظ اليهود بحقوقهم المدنية كاملة فى عهد الفاطميين وحتى القيود التى ذكرتها المصادر على ملابسهم فإن الوثائق تصمت ولا تشير إليها . بل أن هذه الوثائق أشارت إلى أن ملابس النساء اليهوديات كانت مماثلة لملابس النساء المسلمات فى العصرين الفاطمى والأيوبى. وأنه ليس هنا لك أى تحديد اطلاقا لارتداء ملابس ذات لون معين أو مصنوعة من قماش محدد .

فلقد كانت المرأة اليهودية تلبس نفس أردية المسلمة وتضع على وجهها نفس حجاب المسلمة حتى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله المتهم من قبل المؤرخين بتعصبه الشديد ضد غير المسلمين[٦٣] .

وكانت لليهود فى عهد حكم الأيوبيين حقوقهم المدنية والدينية التى كانت لهم فى عهد الفاطميين، وكانت لهم حرية العمل والعبادة وفى ذلك واصل الأيوبيون ما كان قد سار عليه الفاطميون بالنسبة لليهود وأهل الذمة عمومًا ودلت هذه المعاملة الطيبة التى عومل بها أهل الذمة فى عهد الأيوبيين عن تسامح حكامهم وعدم تعصبهم .

ولقد بدأ السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب هذه المعاملة الطيبة وأقر حقوق اليهود المدنية والدينية التى كانت لهم فى عهد الفاطميين[٦٤]. ونبع هذا الأمر من تسامح ذلك السلطان مع غير المسلمين برغم ما عرف عنه من شدة حماسته وغيرته على الإسلام فى وقت ساد فيه التعصب الدينى وتعرض فيه الإسلام للخطر الصليبى .

ولقد كان صلاح الدين نموذجا كاملا للحاكم المسلم العادل، كما كان نموذجا كاملا للفارس الشجاع. وقد كسب هذا السلطان قلوب أتباعه ورعيته لا بفضل عظمة سلطاته واتساع ملكه وسلطانه ولكن بفضل دماثة خلقه وجميل احسانه ، وكان من حق أى حاكم مثل صلاح الدين يخاف الله ويتحرى العدالة فى أعماله أن يلق محبة رعيته مسلمين كانوا أو غير مسلمين[٦٥] .

ويدعى بعض الكتاب كذبا[٦٦] أن صلاح الدين ، بعد أن وصل إلى حكم مصر ، اتخذ موقفا متشددا مع غير المسلمين من رعايا دولته وأنه بذل كل جهده فى إيقاظ شعور العظمة عند المسلمين ضد أعدائهم (الكفار) ، وأن ذلك كان انطلاقا من تعصبه للإسلام واعتباره الحرب مع (الكفار) جهادا مقدسا . واستند هؤلاء الكتاب فى إدعائهم ذلك بأن صلاح الدين أعاد قوانين التفرقة التى كانت قد

طبقت فى عهدى خلفاء العباسيين الرشيد والمتوكل فى القرن الثالث الهجرى وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى القرن الخامس، ويدللون فى ذلك بما رواه المقريزى(٦٧) من أن السلطان صلاح الدين أصدر مرسوما فى ١٣ ذى القعدة سنة ٥٥٧هـ/ ١١٨١ - ١١٨٢م طالب فيه بالايركب النصارى واليهود خيولا وبغالا وإنما يكون ركوبهم فقط للحمير غير المسرجة وألا يستثنى من ذلك طبيب منهم ولا كاتب .

كذلك استند هؤلاء الكتاب على ما رواه المقريزى أيضا من أن صلاح الدين كان قد أمر فى ١٣ رجب سنة ٥٦٧هـ/ بصرف أهل الذمة ومنع استخدامهم فى عمل حكومى ولا شغل ديوانى وأنه صرف جماعة منهم من الأشغال السلطانية فى الخامس عشر من هذا الشهر(٦٨) . حقًا أن المقريزى ذكر هذه الرواية لكنه أضاف بأن صلاح الدين لم يقم بتنفيذ قراره فى هذا الصدد بسبب معارضة قواده الغز فى صرف كتابهم من الذميين ونجاحهم فى ابقاء هؤلاء الكتاب فى مناصبهم متعللين بتدبير هؤلاء اليهود والنصارى أمرهم وخوفهم أن تضيع أمورهم لو قاموا بإخراجهم من هذه الوظائف(٦٩) .

واستند أيضا هؤلاء الكتاب المتحاملون على صلاح الدين والذين اتهموه بمعاداة اليهود ، واستندوا على الموقف المتشدد الذى وقفه منهم نجم الدين الخبوشانى أحد رجال أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين(٧٠) وتشجيع صلاح الدين للخبوشانى على هذا الموقف العدائى من اليهود وتقريبه إليه .

وحكى المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة عن تعرض الخبوشانى لليهود وذكر بأنه تعرض يوما الأحد أطباء اليهود فألقى عليه حجرا فقأ عينه(٧١) .

ونحن لا نستطيع أن نتخذ من هذه الحادثة الفردية التى قام بها رجل - قليل المعرفة بأحوال الدنيا - كما ذكر عنه ابن خلكان(٧٢) ، دليلا على تعصب صلاح الدين ضد اليهود، كذلك لا نستطيع أن نستدل من أن سبب تقريب صلاح

الدين للخبوشانى هو تعرضه لليهود ، ذلك لان الصداقة بينهما كانت قديمة وأن صلاح الدين كان يقرب اليه رجال العلم والدين وكان يعتقد فى علم الخبوشانى ودينه[٧٣] .

ومهما كان الأمر فإننا لا نجد أى إشارة أخرى فى المصادر تشير إلى تشدد صلاح الدين مع اليهود والنصارى، وعلى العكس من ذلك فإننا نجد اشادة بتسامح هذا الحاكم مع اليهود ، فهنالك وثيقة من وثائق الجنيزة تشير إلي ذلك وهى عبارة عن رسالة وردت من الإسكندرية إلى الفسطاط يمتدح فيها كاتبها التاجر اليهودى السلطان صلاح الدين لانقاصه المكوس عن التجار اليهود[٧٤] . وفى عهده سمح لليهود بتولى المناصب الحكومية بعد أن كانوا قد طردوا منها فى أواخر العهد الفاطمى[٧٥] . ووصل بعض منهم إلى مناصب حكومية هامة مثل أبو المعالى عزيل أخ زوجة الطبيب موسى بن ميمون وزوج أخته فقد وصل إلى وظيفة كاتب السر لأحدى زوجات صلاح الدين[٧٦] .

ودليل عدم تعصب هذا السلطان مع اليهود اتخاذه لنفسه ولأسرته عددا كبيرا من أطبائهم خصوصين لهم . ومن الأطباء اليهود الذين خدموا البلاط السلطانى فى عهده وعهد أسرته والذين تحدث عنهم المؤرخ الطبيب المعاصر ابن أبى أصيبعة[٧٧] فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» :

● الطبيب يوسف بن أبى سعيد بن خلف السمارى ، والمعروف بشمس الحكماء . وكان فى خدمة صلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٦٢٤[٧٨] .

● الطبيب أبو المعالى تمام بن هبة الله بن تمام، وكان غزير العلم وافر المعرفة مشهوراً فى الدولة موصوفا بالفضل مشكورا بالمعالجة ، وكان مقيما بفسطاط مصر وأسلم جماعة من أولاده. كان فى خدمة السلطان صلاح الدين وكان ذا حظوة فى أيامه. وخدم بعد ذلك لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وله من الكتب كتاب : «تفاليق ومجربات فى الطب» [٧٩].

● الطبيب الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن جميع الإسرائيلى ، وكان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين ، متفننا فى العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الاجتهاد فى صناعة الطب، ولد ونشأ بفسطاط مصر وخدم السلطان صلاح الدين، وكان رفيع المنزلة عنده عالى القدر نافذ الأمر يعتمد عليه فى صناعة الطب وكان لابن جميع مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب وكانت له فيه كتب كثيرة(٨٠) . أورد ابن أصيبعة أن من كتبه فى الطب : كتاب الارشاد لمصالح الأنفس والأجساد وهو أربع مقالات. وكتاب التصريح بالمكنون فى تنقيح القانون ورسالة فى طبائع الإسكندرية وحال هوائها ومياهها وأحوال أهلها. ومقالة فى الليمون وشرابه ومنافعه ، ومقالة فى الراوند ومنافعه . ومقالة فى علاج القولنج .

● الطبيب أبو البيان بن المدور الملقب بالسديد ، خدم السلطان صلاح الدين وكان يعتمد على معالجته، ولقد عمر هذا الطبيب حتى أصابه الضعف والوهن بسبب كبر سنه فأطلق له السلطان فى كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه فى بيته دون أن يكلف بخدمة وبقى على تلك الحال نحو عشرين سنة. وعاش أبوالبيان ثلاثًا وثمانين عاما، وخدم بعد صلاح الدين الملك العادل ابا بكر بن أيوب وتوفى سنة ٥٨٠ هـ بالقاهرة(٨١) .

● الطبيب الموفق بن شوعة ، خدم السلطان صلاح الدين وعلت منزلته عنده توفى بالقاهرة سنة ٥٧٩هـ(٨٢) .

ويأتى على رأس هؤلاء الأطباء الطبيب العالم الفيلسوف موسى بن ميمون الملقب بالرئيس الذى يقول عنه ابن أبى أصيبعة أنه كان أوحد زمانه فى صناعة الطب وفى أعمالها ، متفننًا فى العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة . وكان السلطان صلاح الدين يرى له وكذلك ولده الملك الأفضل على ، وكان له من الكتب فى الطب: «اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس» ، «مقالة فى البواسير وعلاجها»،

«مقالة فى تدبير الصحة» صنعها للأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين «ومقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة»(٨٣).

وإذا كانت شخصية موسى بن ميمون الطبية قد أحرزت مكانة هامة فى المجتمع المصرى فى عهد صلاح الدين فان هذه الشخصية كان لها دور عظيم فى حياة كل اليهود منذ عهده حتى الآن(٨٤) .

كذلك دليل على أن التسامح كان روح العصر كله أننا نرى القاضى الفاضل وزير صلاح الدين يزور موسى بن ميمون فى منزله للاطمئنان على صحته أثناء مرضه الأخير(٨٥) .

ويحكى لنا القفطى(٨٦) فى كتابه تاريخ الحكماء أن أحد علماء المسلمين اتهم موسى بن ميمون بالارتداد عن الإسلام بعد اعتناقه له فى أواخر أيام حياته لكن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وزير صلاح الدين وصديق ابن ميمون قام بتبرئته من هذه التهمة التى يعاقب الإسلام صاحبها بالموت.

وهنالك رواية تفيدنا بأن يهوديا من بلبيس دعا الوزير سيف الدين بن شكر إلى وليمة خاصة فى بيته (٨٧). ولقد أشاد بروح التسامح هذه فيتزوم بركارد V. Burkhard رسول الملك فردريك بارباروسة الألمانى عند زيارته مصر سنة ١١٧٥(٨٨).

ويخبرنا السبكى(٨٩) عن موقف صلاح الدين من طلب تقدم به اليهود للسلطان يطلبون فيه امتثالهم فى قضائهم إلى قضاة يهود ، كما كان الحال عليه عندهم من قبل .

كذلك طلبوا منه أن يؤول ميراث اليهودى منهم إلى رأس الجماعة اليهودى وفقا لما ورد فى التشريع الإسلامى. كما أنهم طالبوا بأن يحفظ قضاة اليهود ميراث اليهودى القاصر والغائب حتى بلوغ القاصر سن الرشد وحتى يعود الغائب من غربته كما جرت عليه العادة عندهم .

يقول السبكى[٩٠] ما نصه : « رفع اليهود قصة إلى السلطان صلاح الدين انهوا فيها إن عادتهم لم تزل بحمل أمورهم على ما يراه مقدم شريعتهم فهم يتحاكمون إليه ويتوارثون حسب شرعهم من غير أن يعترضهم فى ذلك معترض وإن كان فى الورثة صغير أو غائب كان المحتاط على نصيبه مقدمهم وسؤالهم حمل الأمر على العادة .

فذكر السلطان ما نصه ليذكر السادة الأئمة وفقهم الله – ما عندهم على مذهب مالك والشافعى رضى الله عنهما . فكتب أبو طاهر بن عوف الإسكندرى المالكى وجماعة مالكية ماعندهم وكتب الحافظ أبو طاهر السلفى[٩١] ما نصه الحكم بين أهل الذمة إلى حاكمهم إذا كان مرضياً باتفاق منهم كلهم وليس لحاكم المسلمين فيه نظر إلا بعد جرحه ببينة عليه وجناية ظاهرة وبالله التوفيق».

ولقد اعترض السبكى على هذه الفتيا واعترض على تعرض السلفى للافتاء فى مثل هذه الأمور بحجة أن السلفى لم تكن له فتاوى قبل ذلك وأنه ليس لديه سوى هذه الفتيا[٩٢] .

***

ولقد شهد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين للسلطان صلاح الدين بالتسامح الدينى وعدم التعصب مع غير المسلمين ، وأرجع البعض هذا التسامح على أنه جزء من السياسية الحكيمة التى وضعها هذا السلطان لاصلاح حال اقتصاد مصر وقت أن تولى حكمها وذلك بالاستفادة من جهود جميع العناصر العاملة فى الدولة بغض النظر عن أديانها لمواجهة المصاعب المالية التى نجمت عن اضطراب الأحوال فى مصر غداة توليه الحكم فيها[٩٣] . وسواء كان هذا الرأى صحيحا أم مجانباً للصواب فإنه من الثابت أن صلاح الدين كان يتحرى العدالة ويطبق تعاليم الشرع فى كل معاملاته ويتوخى رضاء الله فى تعامله مع رعايا دولته سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين.

ويبدى تسامح صلاح الدين واضحا مع اليهود فى موقفه منهم بالنسبة لمسألة سكناهم فلسطين عامة ومدينة القدس خاصة. فلقد تنفس اليهود الصعداء على يد هذا الحاكم المسلم الذى سمح لهم بالعودة إلى القدس وفلسطين وبحرية العمل والعبادة فى أرض هذه البلاد التى تقدسها الأديان السماوية الثلاثة. وكان الصليبيون قد طردوا اليهود من فلسطين وحرموا عليهم دخول القدس غداة نجاحهم فى حملتهم الصليبية الأولى وفرضوا عليهم هذا الحظر الذى سبق أن فُرض عليهم من أباطرة الرومان تيتوس وهادريان(٩٤) ، وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة فى المدينة المقدسة وحرية التنقل والعيش فى مدن فلسطين وهو امتياز حصلوا عليه من المسلمين غداة الفتح الإسلامى لبلاد الشام(٩٥) .

كذلك رفع صلاح الدين الاضطهاد الذى تعرض له اليهود على يد الصليبيين فى بلاد الشام . وتحكى لنا المصادر العربية والأوربية عن المعاملة القاسية التى عامل بها الصليبيون سكان فلسطين عامة والقدس خاصة مسلمين ومسيحيين ويهود أثناء الحروب الصليبية ، فحين استولى «جودفروا دى بلوين» قائد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (١٥ يوليو ١٠٩٩) أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة وانطلق رجاله فى شوارع المدينة يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل(٩٦) .

وبالنسبة لليهود فلقد أحرق الصليبيون عليهم معبدهم الذى اجتمعوا فيه فمات منهم عدد كبير وأسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة وروى أن ثلاثين يهوديا بيعوا بدينار واحد(٩٧) . وبرر « دى بلوين» قتله وتحريقه لليهود بأنه إنما ينتقم منهم لقتلهم المسيح(٩٨) .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين وشملهم القتل والأسر فى يافا وحبرون (الخليل) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية(٩٩) ،

ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجيا بحياته إلى أماكن أكثر أمانا حتى كادت مدن فلسطين أن تخلو تماماً من اليهود، وذكر الرحالة اليهودى الأندلسى بنيامين التطيلى الذى زار فلسطين فى سنة ١١٧٠م أنه رأى مدن فلسطين خالية من اليهود أو تكاد[١٠٠] .

وظل شتات اليهود وتحريم سكناهم مدن فلسطين عامة والقدس خاصة قائما حتى فتح صلاح الدين هذه المدينة . فبعد أن فتح صلاح الدين القدس (يوم الجمعة ٢٥ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ أكتوبر ١١٨٧م) سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير[١٠١].

ولقد تحدث الشاعر الأديب اليهودى « يهودا الحريزى » الذى زار مدينة القدس بعد ربع قرن من عودتها إلى يد صلاح الدين (حوالى سنة١٢١٦م) عن عودة اليهود إلى القدس، وأشاد بموقف صلاح الدين المتسامح من اليهود ومما قاله فى هذه المناسبة :

« ... لو تساءلنا عن سبب منع الصليبيين المسيحيين اليهود من البقاء فى فلسطين .. سمعناهم يقولون بأننا المتسببون فى قتل الههم ولذلك أنذروا بأنهم سيأكلونا أحياء لو تمكنوا منا لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعو نه المدينة فى يده. وعندئذ أرسل السلطان مناديا ينادى فى أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل البلاد التى لجأوا إليها ...»[١٠٢] .

ولقد شهد على عدالة وتسامح صلاح الدين وحسن معاملته لليهود غداة فتحه بيت المقدس زعيمهم « دافيد بن جوريون» فلقد أورد فى كتابه ما نصه[١٠٣].

« .. لقد أصدر صلاح الدين نداءً غداة فتحه للقدس يحث فيه اليهود صغارا وكبارا الفارين من حكم الصليبيين على أن يعودوا إلى القدس ، وفى خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان العادل أعيد تجمع اليهود فى القدس ووفد اليهود عليها من كل صوب. ولقد عاد مع هؤلاء العائدين عدد من كبار علماء اليهود وربابنتهم منهم ثلثمائة من فرنسا وانجلترا وأسبانيا وسكنوا المدينة .، ولقد ذكر مؤرخ يهودى أن الملك العادل أخ صلاح الدين استقبل فى سنة ١٢١١م هؤلاء العلماء اليهود الثلثمائة استقبالا طيبا وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الرابى شمشون بن ابراهيم الشنازى والرابى يوناتان اللونلى ، ولقد استمرت هجرة العلماء اليهود الغربيين إلى القدس وفلسطين طوال عهد صلاح الدين وعهد أسرته من بعده » .

وفى جو التسامح هذا عاود اليهود نشاطهم التجارى القديم بين الشرق والغرب ، ولم يضع السلطان الأيوبى أية قيود على اشتغالهم فى التجارة أو مساهمتهم فى عودة الرواج الاقتصادى للبلاد(١٠٤) . فساوى بينهم وبين بقية التجار غير المسلمين فى دفع المكوس . وكان يؤخذ منهم العشر فى ميناء الاسكندرية ودمياط على البضائع التى كانوا يجلبونها من بلاد أوربا إلى مصر مرة كل عام(١٠٥) ثم تقرر أن يؤخذ منهم ومن سائر التجار الأجانب الخمس – وهو ضعف العشر – عن كل ما يصل لهم مرة كل عام(١٠٦) .

وكان يهود مصر يدفعون الجزية فقط مقابل تمتعهم بالحقوق المدنية والدينية ، وقد جاء فى وثائق الجنيزة أن هذه الجزية كانت تسمى فى عهد الفاطميين والأيوبيين (جعلية) وأنها كانت تؤدى حتى أثناء وجودهم خارج مصر حين يخرجون للتجارة ، ومن أمثلة ذلك أن تاجراً يهوديا من تجار الهند تغيب فى الهند تسع سنوات ثم مات هناك فدفع عنه أخوته فى مصر جعلية السنين التسع. وفى خطاب مرسل من الإسكندرية من أخ لأخيه الذى يتاجر فى الهند يطلب منه

أن يرسل ما عليه من جعلية لان أباه كان يدفع له طوال غيابه ، وعند وصول هذا التاجر إلى الإسكندرية- بعد غياب أربع سنوات سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م - أرسل التاجر إلى صديق له فى الفسطاط يطلب منه أن يخبر المحصل بغرق سفينته ورجائه أن يرفع عنه جعلية السنوات الأربع[١٠٧] .

ومهما كان الأمر فإن اليهود حصلوا على حقوقهم المدنية كاملة فى عهدى الفاطميين والأيوبيين ، وفى ذلك دلالة واضحة على تسامح الإسلام والمسلمين وعلى نبذهم للتعصب المقيت ، وبرغم بعض المضايقات القليلة التى تعرضوا لها فى عهد بعض الحكام المتشددين فإنها كانت فترات قصيرة ولم تتعد المضايقات حد تحديد الملبس وأداة الركوب وهذا بالطبع لا يقارن إطلاقا بما تعرض له اليهود فى ذات الوقت فى أوربا على يد أقرانهم مسيحيى أوربا من أعمال طرد وقتل وتعذيب واكراه فى الدين . ولقد قام المسيحيون أنذاك بموجة الاضطهاد لليهود وكانوا يتخذون من قتل اليهود وسيلة للتقرب إلى الله وطريقا لنيل عفوه ورضاه ، فلو قارنا الحال بالحال لقلنا ما أعظم الإسلام وما أكرمه وأسماه .

هوامش الفصل الأول

١ - أبو يوسف : الخراج ، طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ، ص ٧١.

٢ - عن هذا العهد انظر : فتوح مصر لابن عبد الحكم ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ، ١٩٢٠.

٣ - ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٥٧.

٤ - آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧، جـ١ ، ص ٦٩ ، ٧٠.

٥ - متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٥٩.

٦ - نفس المصدر السابق ، ص ٦٩.

٧ - صبحى الصالح: النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها ، بيروت ١٩٦٥، ص ٣٦٥ - ترتون : أهل الذمة ص٢٠٧.

٨ - متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٧٥.

٩ - عن هذه الوثائق أنظر مقال للمؤلف بمجلة جامعة القاهرة (فرع الخرطوم) ، العدد الخامس لسنة ١٩٧٤، ص ١-٩.

١٠- Coitein, S : Studies in Islamic History and I nstitutions, Leiden 1967 P. 283.

١١- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٧٧.

١٢- سيدة كاشف : مصر فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١٤.

١٣- هنالك رواية تقول أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم أن يسكنوها ولا يخالطوا المسلمين ، بينما تقول رواية أخرى أنه أسكنهم حارة اسمها (الجودرية) .

(عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩، ص١٠١).

١٤- Fehervari, Cambridge History of Islam, V. 11, C a,bridge 1970, P.742.

١٥- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٦٨.

١٦- Cahen, C : Economy, Society and Institutions, Cambridge History of Islam, V. 11, Cambridge 1970, P. 524.

١٧- زار الرحالة اليهودى الأندلسى بنيامين التطيلى (الذى ينتسب إلى مدينة تطيلة بالقرب من قرطبة) بلاد العالم الإسلامى فى الفترة ما بين سنوات ١١٧٠- ١١٧٣م وضمن كتاب رحلته كل ما شاهده فى بلاد العالم الإسلامى التى زارها أنذاك وخاصة فيما يتعلق بحياة اليهود فى هذه البلاد .

١٨- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ٧٨ . نقلا عن التطيلي .

١٩ -عن رأس الجالوت ، أنظر الفصل التالى .

٢٠- Anwati, G; Science, Cambridge History of Islam, V. 11, Cambridge 1970, P. 742.

٢١- أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٢.

٢٢- أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٢.

٢٣- ترتون : أهل الذمة ، ص ١٢٦

متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ص ٨٤ ، ٨٥.

٢٤- Cambridge History of Islam, V. 1, P. 127.

٢٥- محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٦، ص ٨٦.

٢٦- Goitein : Jews and Arabs, their contact throu gh the ages, New York 1955, p. P. 72.

٢٧- Mann, J : The Jews in Egypt and Palestine, Oxford 1969, V. 1, P. 38.

٢٨- Goitein : Studies in Islamic History, P. 290.

٢٩- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ص ٧٠.

٣٠- كان يعقوب بن كلس يهوديا ، نشأ ببغداد ، ثم سافر مع أبيه إلى الشام، ورحل منها إلى مصر حيث اتصل بكافور الأخشيدى ، أيام دولة الأخشيدين في مصر .

ولقد أعجب كافور بذكائه وعينه فى ديوانه الخاص ، ولما ظهر إسلامه فى شعبان سنة ٣٥٦هـ زادت حظوته عند كافور وصار من كبار موظفيه ، ولما توفى كافور سنة ٣٥٢هـ اضطربت الحالة السياسية فى مصر واستبد الوزير جعفر بن الفرات بالحكم فى مصر فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوى الرأى وصادر أملاكهم وكان من بينهم يعقوب بن كلس الذى ظل معتقلا حتى شفع له الوزير أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى عند الوزير إبن الفرات ورحل يعقوب إلى المغرب فالتقى فى طريقه بجيش المعز لدين الله الغازى لمصر فدله على وجوه ضعف مصر وصحب جوهر وجيشه عائدا إلى مصر (سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٦٥ ، ٦٦).

٣١- محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٦.

٣٢- سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٦ ، ٨٧.

٣٣- حسن إبراهيم : الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤، ص٢٠٢.

٣٤- حسن إبراهيم : نفس المصدر ص ٢٠٣.

٣٥- كان عهد منشا في الشام عهدا ذهبيا لليهود هناك ، وورد في وثائق الجنيزة أن اليهود في عهده كانوا يحتفلون باحتفالاتهم الدينية القديمة ، ولقد خلف منشا ابنه عاديا في مركزه بالشام.

Mann : Jews in Egypt, V. 1, P. 19.

(Ibid, P. 21).

٣٦- عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٥، ص٩٣.

٣٧- كان عالما بارزا درس فى مدرسة بمباديثا فى العراق على يد العالم شيريرا رئيس مدرستها . ذهب فى بعثة من قبل الأكاديمية إلى شمال أفريقيا وأوروبا فأسر على السفينة وأطلق سراحه فى الإسكندرية ٩٧٠م وبقى فى الفسطاط حتى وفاته . وتم تشييع جنازته ٣٩٥هـ/ ١٠١٢م . ولقد استمر نشاط شماريا فى الفسطاط حوالى أربعين عاما وتغنى بمديحه كثير من الشعراء (Mann: Jews in Egypt, V. 1, PP. 26-27)

٣٨- كان طبيبا ذا نفوذ كبير وكان صديقا حميما لشماريا . سكن دمشق فى أواخر ايامه وهنالك وثيقة طلاق فى الجنيزة تنتسب إلى مدينة الرملة مؤرخة بعام ١٢٠٦م عليها توقيعه وتوقيع ابنه إبراهيم (Op. cit. 1, P. 28)

٣٩- Ibid, P. 32.

٤٠- Mann : Jews in Egypt., V. 1, P. 34.

٤١- Ibid, P. 34.

٤٢- وجدت نسخة من هذا الخطاب فى جنيزة القاهرة مطابقة للنسخة المرسلة إلى القدس . (Mann : Op. cit.., I, P. 34)

٤٣- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بيروت ١٩٧٠، جـ٢ ، ص١٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢٤ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢١٨.

٤٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بيروت ١٩٧٠، جـ٢ ، ص١٦٦.

٤٥- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٨٦.

٤٦- حسن إبراهيم : الدولة الفاطمية ، ص٢٠٩.

٤٧- سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٧.

٤٨- ابن زولاق : تاريخ مصر ، مطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب.

٤٩- Mann : Op. cit., I, P. 36.

٥٠- هذه الوثيقة ضمن مجموعة بودلين برقم ٢٨٣٤ نشرها Pozn فى : REJ, XLVIII, PP. 171 - 2.

٥١- Mann : Op. cit., I, P. 38.

٥٢- سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٩.

٥٣- تحدثنا المصادر عن بيتين يهوديين ينتسبان إلى مدينة تستر وكانا على اتصال بالبلاط الفاطمى فى مصر وكانا من كبار رجال المال والتجار والصيرفة وهما بنو سهل ، الأول بيت أبى سعيد إبراهيم بن سهل التسترى والثانى بيت أبى نصر هارون بن سهل التسترى . ولقد نزح هذان البيتان من تستر إلى بغداد ونزلوا محلة التستريين ثم نزحوا من بغداد إلى مصر واقاموا بالفسطاط واتصلوا ببلاط الخليفة الحاكم . وكان ابو سعد سيدا لأم الخليفة المستنصر وكان له نفوذ كبير وارتفع شأنه فى أوائل عهد المستنصر ووصل إلى كرسى الوزارة كذلك ارتفع شأن أخيه هارون بعد مقتل أبى سعد وأسند إليه المستنصر ديوان خاصته .

(انظر للمؤلف مقال بعنوان : الأهمية التجارية لمدينة تستر فى العصر العباسى الأول ، مجلة الجامعة الإسلامية بالرباط المغرب العدد الثانى ١٩٧٥، ص ٧٤ ، ٧٥) .

٥٤ - سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٨٩ ، ٩٠.

٥٥- الدليل على سعة ثروته أنه أهدى والدة المستنصر هدية تتكون من سفينة من الفضة بلغ حجم الفضة بها ١٣٠,٠٠٠ درهم وتكلف تصنيعها وتزيينها ٢,٤٠٠ دينار (Mann : Op. cit., I, P. 77)

٥٦- Mann : Op. cit., I, P. 207.

٥٧- Ibid, P. 209.

٥٨- أورد أبو صالح الأرمنى أنه قتل سنة ١١٣٤ ، تاريخ أبو صالح الأرمنى ، نشر ايفيتس ، اكسفورد ١٨٩٥ ، ص ١١٥ ، ١٣١، ١٥٠.

٥٩- Mann : Op. cit., I, P. 215

٦٠- Ibid, P. 217.

٦١- حقق هذا المنشور الأستاذ أحمد محمد عيسى أمين مكتبة جامعة القاهرة (السابق) أثناء مساهمته فى أعمال البعثة المصرية الأمريكية لتصوير مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين . (أورد نص المنشور د. حسن إبراهيم فى كتابه الدولة الفاطمية ص ٢١٦ ، ٢١٧) .

٦٢- Gottheil : An answer to the dhimmis, JAOS, 1941, P. 402.

٦٣- Yedida K. Stillman : The 1 mportance of the Cairo Geniza International Journal of the Middle East Studies, Cambridge University October 1976, No. 4, P. 582.

٦٤- انظر للمؤلف مقال : صلاح الدين واليهود ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٧٧ ص ٣٩ - ٥٤.

٦٥- Goitein : Jews and Arabs, P. 72.

٦٦- Ashtor : Saladin and the Jews, Hebrew Union College annual, v. xxvll, Jerusalem 1956, P. 306.

٦٧- السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول- القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤، ص ٧٧.

٦٨- المقريزى : السلوك جـ١ ، ق١ ، ص٤٧.

٦٩- نفس المصدر السابق ، ص ٤٧، ٤٨.

٧٠- هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد الخبوشانى الملقب نجم الدين

الفقيه الشافعي وينتسب إلى خبوشان وهي بليدة بناحية نيسابور. كان فقيها فاضلا كثير الورع ، لما استقل صلاح الدين بملك مصر قربه وأكرمه وكان يعتقد في علمه ودينه ويقال أنه أشار عليه بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الأمام الشافعي فلما عمرها فوض تدريسها إليه سنة ٥٧٢هـ. ويقول ابن خلكان (وفيات الأعيان ، جـ٣، بيروت ١٩٧٠، ص٢٣٩) أنه رأى جماعة من أصحابه كانوا يصفون فضله ودينه وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا - توفى سنة ٥٨٧هـ بالمدرسة المذكورة ودفن في قبة خلف الأمام الشافعي .

٧١- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء في طبات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥، ص ١١٦.

٧٢- وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٣٩ ، ٢٤٠.

٧٣- أورد ابن خلكان عن الخبوشاني قوله في مكان اخر أن صلاح الدين لما عزم القبض على العاضد واستفتى الفقهاء في قتله أفتوه بجواز ذلك وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد وهو الشيخ نجم الدين الخبوشاني . (وفيان الأعيان ، جـ٣ ، ص ١١١) .

٧٤- هذه الوثيقة ضمن مجموعة الوثائق التي يحتفظ بها المؤرخ اليهودى المعاصر S.Coitein والتي لم يقم بنشرها بعد - أنظر مقالة جواتيين :
The Cairo Geniza as a source for the History of the Muslim Civilisation, Studia Islamica, III. Paris 1955, P. 85.

٧٥- R. Gottheil: An answer to the dhimmis, P. 402.

٧٦- Ashtor : Saladin, P. 309.

٧٧- هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجي ، ولد في دمشق سنة ٦٠٠هـ وكان والده أمهر الكاحلين (أطباء العيون) في دمشق. عاش في القاهرة الأيوبية والتحق بالمارستان الناصرى

الذى انشأه صلاح الدين فى القاهرة. واشتهر بحسن مداواته لأمراض العيون واستلفت نبوغه المجالس على كرسى الملك فألحقه بخدمة الدولة . توفى فى صرخد أحدى مدن جبال حوران سنة ٦٧٨هـ (عن مقدمة كتابه عيون الأنباء ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥).

٧٨- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٧٢١.

٧٩- نفس المصدر السابق ، ص ٥٨٢.

٨٠- نفس المصدر ، ص ٥٧٩.

٨١- نفس المصدر ، ص ٥٧٩ ، ٥٨٠.

٨٢- نفس المصدر ، ص ٥٨١.

٨٣- نفس المصدر ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣.

٨٤- سنتناول الحديث عن هذه الشخصية عند الحديث عن علماء الأندلس اليهود فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

٨٥- إسرائيل ولفنسون : موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته ، القاهرة ١٩٣٦، ص ٢٤.

٨٦- تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ١٩٠٣ ، ص ٣١٩.

٨٧- Ashtor L Op. cit., P. 309.

٨٨- Ibid, P. 309.

٨٩- طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٤ ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص٤٧.

٩٠- السبكى : نفس المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٧.

٩١- هو أبو طاهر بن أحمد أبى أحمد السلفى الأصبهانى الجروانى، كان حافظا جليلا وأماما كبيراً واسع الرحلة دينا ورعا وحجة ثبتا فقيها لغويا. قيل مولده سنة ٤٧٢هـ تخمينا لا يقينا وقيل سنة ٤٧٥ وقيل ٤٧٨هـ. (السبكى : طبقات الشافعية ، ص ٤٣) وأضاف المقريزى عنه قوله أن السلطان صلاح الدين سمع الحديث عنه كذلك سمع عنه أخوه الملك العادل

(السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٤٤).

٩٢- يقول السبكي ما نصه (طبقات الشافعية) ، جـ٤ ص ٤٧ « وقد ذكر الوالد رحمه الله هذه الفتيا في كتابه : كشف الغمة في ميراث أهل الذمة ، وحكى خطوط الجماعة كلهم وذكر أنه وقف عليه أحضره له بعض اليهود ليستفتيه في هذا المعنى. قال الوالد : فإن كانوا زوروه فهم عريقين في التزوير وإلا نتكلم عليه على كلام واحد واحد إلى أن انتهى إلى السلفي فقال : وأما السلفي فهو محدث جليل حافظ كبير وماله وللفتوى وما رأيت له قط فتوى غير هذه وما كان ينبغي له أن يكتب فان لكل عمل رجالا ، وقوله يتخير الحاكم في الحكم بينهم هو أحد قولي الشافعي ولعله لما كان مقيما بالإسكندرية وليس فيها إذ ذاك إلا مذهب مالك ونظره في الفقه قليل أو مفقود.، أعتقد أن الراجح عند الشافعي التخيير كالمالكية والصحيح عند الشافعية وجوب الحكم لقوله تعالى : { وأن أحكم بينهم بما أنزل الله } وقوله في مال الغائب والطفل لعله تقليد وحسن ظن بمن قاله من المالكية . أما الشافعية الذين هو متذهب بمذهبهم فلم يقل به أحد منهم .

٩٣- Ehrenkreutz : Contributions to the Knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages BSOASU, V. XVI, Part 3 , London 1954, P. 514.

٩٤- Eva Goldmann : A History of the Jewish People, London 1967, P.92.

٩٥- ظل حظر دخول القدس على اليهود قائما حتى استيلاء جيوش الخليفة عمر إبن الخطاب سنة ٦٣٧م على القدس . وكان زعماء المسيحيين في المدينة قد اشترطوا على الخليفة شروطا يسلموه بعدها المدينة منها شرط منع اليهود من دخولها لكن الخليفة عمر رفض هذا الشرط وأعلن بأن القرآن حدد لأهل الكتاب ما لهم وماعليهم وليس فيه شيء يسمح بهذا . وبذلك صار لهم الحق

فى العيش بها واستمر هذا الحق قائما حتى فتح الصليبيين للقدس (حسن ظاظا: القدس مدينة الله ، الإسكندرية ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠ ، ٣١).

٩٦- ستيفن رونسيمان : تاريخ الحرب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص٤٠٤.

٩٧- David Ben - Gurion : The Jewish in their Iand, London 1966, P. 214.

٩٨- Simon Dubnov : History of the Jews, v. Iv, London 1968, P. 672.

٩٩- Ben - Hurion : Op. cit., P. 214.

١٠٠- Ibid, P. 215.

١٠١- أن أبلغ ثناء لصلاح الدين عن موقفه فى هذه المناسبة ما أورده المؤرخ لين بول حين قال : إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التى أبداها صلاح الدين لسكانها هى الحسنة الوحيدة التى فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقهم قلبا فى عصره بل وربما فى كل العصور »
(Stanley Lane - Pool : Saladin and the Fall of the Kingdon of Jerusalem, Beirut 1964, P. 234).

١٠٢- Dubnov, S : History of the Jews, v. IV, P. 816.
نقلا عن مذكرات الحريزى .

١٠٣- The Jews in their Land, PP. 217- 218.

١٠٤- Ashtor : Saladin and the Jews, (Hebrew Union College Annual, v. 27. 1958, P. 328)

١٠٥- المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ،جـ٢ ، ص١٢٠.

١٠٦- القلقشندى : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥، جـ٣ ، ص ٤٥٩.

١٠٧- عطيه القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة ١٩٧٦، ص٢٣٨.

مصادر الفصل الأول

* **ابن أبي أصيبعة** : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥.
* **ابن خلكان** : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، بيروت ١٩٧٠.
* **ابن زولاق** : تاريخ مصر ، مخطوطه ، بالمكتبة الأهلية بباريس – رقم ١٨١٧.
* **أبو يوسف** : الخراج ، طبعة بولاق ١٣٠٢هـ.
* **آدم متز** : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزءان ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٧.
* **إسرائيل ولفنسون** : موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته ، القاهرة ١٩٣٦.
* **ترتون** : أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٧.
* **حسن إبراهيم حسن** : الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤.
* **السبكي** : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٤ ، القاهرة ١٩٥٠.
* **سيدة كاشف** : مصر في عصر الطولونيين والأخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠.
* **صبحي الصالح** : النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، بيروت ١٩٦٥.
* **عبد المنعم ماجد** : الحاكم بأمر الله المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩.
* **عطية القوصى** : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتي سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦.
* **القلقشندى** : صبح الأعشي في صناعة الأنشا ، جـ٣ ، القاهرة ١٩١٥.

* القفطي : تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ١٩٠٣.
* محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٦.
* المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول - القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤.

- **Ashtor** : Saladin and the Jews, Hebrew Union College Annual, v. xxvll, Jerusalem, 1956.
- Cambridge History of Islam, v. 1, ll, Cambridge 1970.
- **Ehrenkreutz** : Contributions to the knowledge of the Fiscal administration in the Middle Ages, Bulletin of the school of Oriental and African Studies, V. XVI, Part 3, London 1954.
- **Coitein S** : Jews and Arabs, their contact through the Ages, New York 1955.
- **Coitein, S** : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden 1967.
- **Coitein, S** : The Cairo Geniza as a Source for the History of the Muslim civilisation, Studia Islamica, Paris 1955.
- **Gottheil, R** : An answer to the dhimmis, JAOS, (Journal of the American Oriental Society), New Havan 1941.
- **Mann, J** : The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimids, Oxford 1969.
- **Yedida K. Stillman** : The Importance of the Cairo Geniza, International Journal of the Middle East Studies, Cambridge University, October 1976, No. 4.

الفصل الثانى

وظائف اليهود الدينية والسياسية
فى ظل الدولة الإسلامية

يحكى كتاب اليهود أن الخليفة عمر بن الخطاب أقر تعيين الحاخام الأكبر «البستانى» رئيس جالية اليهود بالعراق رئيسا دينيا لكل الطائفة اليهودية فى العالم الإسلامى بعد أن فتح المسلمون العراق واستخلصوه من الفرس. كذلك ذكروا أن الخليفة عمر منح هذا الحاخام لقبا جديدا مميزا له وهو لقب «رأس الجالوت» ، على أن يتولى شئون اليهود فى الشرق والغرب كما كان حالهم عليه قبل الإسلام[١] .

وكان حاخام اليهود الأكبر قبل الإسلام واحدا من عمال الامبراطور الفارسي، وكان يلقب بلقب «الملك» ، وهو لقب كان يطلق على حكام المقاطعات فى فارس، لأن الملك الفارسى كان يلقب بملك الملوك[٢] . وذكر ابن خلدون[٣] أن رئيس اليهود فى عهد السلوقيين للشام كان يسمى ملكًا وكان قبل ذلك هو وجميع من تقدمه ممن ولى أمر اليهود فى القدس بعد عودهم من السبى إنما يقال له الكوهن الأكبر[٤] . ويقول المقريزى[٥] أن أول من حمل لقب الملك منهم هو هورقانوس بن شمعون بن مشيثا الذى اجتمع إليه منزلة الملك ومنزلة الكهنوتية ، أى صار رئيسا سياسيا ودينيا لليهود واطمأن اليهود فى أيامه .

وكانت أعداد كبيرة من اليهود تسكن فارس والعراق قبل الإسلام ويعمل بعضهم فى الزراعة ويعمل البعض الآخر فى الصناعات البسيطة. وكان يوكل إلى رئيس اليهود آنئذ مهمة جمع الضرائب منهم ومراقبة محلاتهم فى الأسواق والنظر فى جرائمهم ومقاضاتهم . وكانت لهذا الرئيس زعامته السياسية والدينية على اليهود فى عهد الدولة الساسانية الفارسية كما كان له النفوذ الكبير والسيطرة التامة عليهم[٦] .

ولقد أبقى الخليفة عمر وضع اليهود على ما هو عليه حيث اعتبرهم والمسيحيين أهل ذمة وكانت له معهم عهود صلح على أن يحتفظوا بحقوقهم المدنية والدينية وتكون لهم الحماية الاجتماعية من قبل دولة الإسلام مقابل دفعهم

الجزية[7] . وكما تروى المصادر اليهودية فإن الخليفة عمر أقر الحاخام البستانى رئيسا لعموم الطائفة اليهودية فى الدولة الإسلامية، وأن هذا المنصب بقى فى أعقابه يتوارثونه وقتا طويلا ، وبينما تلصق المصادر اليهودية منح لقب رأس الجالوت لكبير الحاخامات اليهودية بالخليفة عمر فإن المصادر العربية ترجع تاريخ حمل اللقب إلى ما قبل الفتح الإسلامى. فيروى الطبرى[8] أن لقب رأس الجالوت يرجع تاريخه إلى عهد عيسى المسيح، وأن رياسة الجالوت كانت فى أيام المسيح لرجل يدعى يونن بن بهبوثن .

كذلك تحدث المؤرخ المعتزلى أبو عثمان الجاحظ عن هذه الوظيفة فى كتابه «المحاسن والأضداد» عند تعرضه فى الحديث لامبراطورية الفرس الساسانيين ولعيد النيروز عند الفرس فنجده يقول : « كان متى اجتمع النيروز فى يوم سبت أمر الملك لرأس الجالوت بأربعة آلاف درهم ، ولم يعرف له سبب أكثر من أن السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية»[9] .

كذلك ذكر الجاحظ فى كتابه الحيوان[10] أنه لم يكن لرأس الجالوت فى الإسلام حبس ولا ضرب وليس له إلا أن يغرم المال . ومن هذه العبارة ومع ما ذكره عن رأس الجالوت سابقا قد يرد إلى ذهننا أنه من المحتمل أن كان لرأس الجالوت فى الإسلام سلطة الحبس والضرب على رعاياه ، وهذا يؤيد وجود هذا اللقب قبل الإسلام. وأشار « القزوينى » أيضا إلى قدم هذا اللقب ووجوده قبل الإسلام وذلك فى كتابه آثار البلاد[11] .

يقول الخوارزمى عن رأس الجالوت ما نصه : «هو رئيس اليهود» ، والجالوت هم الجالية أعنى الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس. ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام وتزعم عامتهم أنه لا يرأس حتى يكون طويل الباع تبلغ أنامل يديه ركبتيه إذا مدهما[12] .

وبمقارنة ما عرضناه من آراء المؤرخين عن وظيفة رأس الجالوت نرى أن لقب رأس الجالوت لقب قديم معروف عند اليهود وكان يطلق على رئيسهم قبل الإسلام . ولما جاء الإسلام جدد الخليفة عمر منح اللقب لرئيس اليهود وحاخامهم الأكبر وأقره عليه وأعترف بسيادته على بنى جلدته .

ويضيف كتاب اليهود بأن الخليفة على بن أبى طالب أقر بيت البستانى على رئاسة اليهود وحمل كبيرهم للقب رأس الجالوت ، وذلك بسبب تأييدهم له فى صراعه مع معاوية واقتناعه بحسن رياسة هذا البيت(١٣). كذلك قالوا أن الوضع استمر على ما هو عليه فى عهد الأمويين، وأن مقر الحاخامية انتقل فى عهدهم من العراق إلى فلسطين بعد أن اتخذ الأمويون الشام مركزا لدولتهم ودمشق عاصمة لهم(١٤) .

أما عن مراسم تعيين رأس الجالوت ، فلقد كان يصحب تعيين رأس الجالوت احتفال كبير يقوم به اليهود ، ولقد ذكر العالم اليهودى العراقى ناتان البابلى الذى هاجر إلى أفريقية سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م كثيرا عن الحاخامية اليهودية فى العراق وعن مراسم تعيين رأس الجالوت وكان شاهد عيان لذلك فنجده يقول(١٥) : حين يتم اختيار رأس الجالوت يقوم رؤساء أكاديميتى السورا وبمباديثا بالاجتماع معه فى مكان معروف محدد حيث يباركونه ثم يجتمعون فى المعبد يوم الخميس التالى وهنالك ينعقد المجلس الدينى الأعلى وينفخ نافخ الشوفار (البوق) لأخبار كل الناس بالأمر. وحين يعلم اليهود بالنبأ يتقدم كل واحد منهم بهدية إلى الحاخام الجديد كل على قدر حاله. فكان الأغنياء يرسلون له الملابس الغالية وأشياء ثمينة وأدوات وأوانى ذهبية وفضية . ويقوم الحاخام بعمل وليمة لأقرانه يومى الخميس والجمعة تحتوى على طعام وشراب متعدد وحلوى . وفى صباح يوم السبت التالى يحضر الحاخام الأكبر إلى المعبد محاطا بكبار رجال الدين اليهود ويصعد على منبر خشبى مغطى بالحرير ومزدان

بالزينات ويقوم عدد من الشبان بالإنشاد من التوراة بصوت جميل ، وبعد ذلك يقف الحاخام مع أقرانه للصلاة خلف المنبر بينما يقوم المنشدون بالإنشاد للصلاة وعندما تنتهى الصلاة يتقدم الحاخام الأكبر بضع خطوات أمام جمع اليهود المحتشد الذين يهتفون بدورهم ثم يجلس رأس الجالوت فى مكان أعد له على المنبر ويتبعه رجال أكاديمية سورا الذين يبدون له مظاهر الطاعة والولاء ثم يطلب منهم أن يجلسوا بجواره كذلك يطلب نفس الشىء من رجال أكاديمية البمباديثا. ويظل جمهور اليهود واقفا حتى يجلس رجال الدين فيكون رأس الجالوت بذلك جالسا فى الوسط وعلى يمينه رئيس أكاديمية بمباديثا . ويقوم المنشدون بالإنشاد والدعاء للحاخام الأكبر رأس الجالوت ويرد الجميع بقولهم «آمين» . وبعد ذلك يقدم رأس الجالوت عرضا لما قام به رجال أكاديمية سورا ويردد رجل بصوت عال ما يقوله الحاخام حتى يسمع الناس وبعد ذلك ينشد المنشدون بالإنشاد والدعاء للحاخام وأقرانه رجال الدين . وبعد ذلك يعلن رأس الجالوت أرقام الدخل الوارد من كل المدن التى يقيم بها اليهود ثم يدعو للخليفة ولممثلى الحكومة الذين يقدمون المساعدة للأكاديميات اليهودية وبعد ذلك يوضع طومار العهد على المنبر ويتقدم رجلان من رجال الدين ويقرأ منها ويقف المنشدون بجواره يرددون بعضا من قوله . وبعد رأس الجالوت يقرأ من التوراة أحد رجال أكاديمية سورا وسط صلوات الجميع وابتهالاتهم. وبهذا تنتهى مراسم تنصيب رأس الجالوت. وبعدها يخرج رأس الجالوت من المعبد ويتبعه عدد من الجمهور يغنى أغانى منها مديح له حتى يصل إلى بيته ، وعند بيته ينفصل عنه المنشدون ويبقى بعض جمهور الشعب العادى بجوار منزله طوال سبعة أيام وبعد الأيام السبعة التى يعكتف فيها رأس الجالوت فى منزله يعود إلى المعبد ويصلى بالناس ثم يتلقى تهانيهم وتباريكهم للمرة الثانية ثم يباشر مهام منصبه» .

وكان من اختصاص رأس الجالوت الأشراف على كل اليهود المقيمين فى

الدولة والنظر فى أحوالهم. كما كان يقوم بعملية تنظيم دفع الجزية المقررة من الدولة على اليهود . يقول بتاحيا : «أن اليهود فى العراق لايدفعون شيئًا للخليفة وإنما يدفع الواحد منهم فى كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت»[16] ويقول أن رأس الجالوت يقدم هذه الأموال المجموعة للحكومة وأن دخل الحكومة من هذه الجزية المحصلة بواسطة رأس الجالوت مائتا ألف دينار[17].

وكان رأس الجالوت يجمع لنفسه بعض الأموال والهدايا من رعاياه اليهود ودليل ذلك ماورد عن رأس الجالوت داود بن زكى الذى أرسل ابنه إلى احدى مقاطعات فارس لجمع هدايا له من يهودها ولكن هذا الابن لم يستقبل هنالك استقبالا طيبا الأمر الذى أغضب رأس الجالوت وجعله يرسل تهديدا لأهالى تلك المقاطعة من اليهود يهددهم بأن تحل لعنته عليهم إذا هم لم يدفعوا له ما طلب . كذلك أرسل رأس الجالوت هذا إلى الوالى على المنطقة يطلب منه أن يساعد ابنه فى هذا الخصوص فما كان من الوالى إلا أن قام بالقبض على اليهود وأجبرهم على الدفع لابن رأس الجالوت[18] .

وكان من اختصاص رأس الجالوت اختيار ممثلين دينيين ينوبون عنه فى المراكز الدينية المختلفة. كذلك كان رأس الجالوت بحكم وظيفته رئيسًا لقضاة اليهود وهو الذى كان يختار قضاة اليهود(الديانيين) [19]. كما كان يقوم بنفسه بالنظر فى قضايا اليهود الهامة والحكم فيها ، على أن حكمه كان يقتصر على التغريم بالمال لأنه لم يكن من سلطته الحبس أو الضرب[20] .

وفى العصر العباسى أصبحت بغداد مقر الحاخاميات اليهودية الكبرى بعد أن ابتناها العباسيون عاصمة لخلافتهم . وكان الخليفة العباسى هو الذى يختار ويعين رأس الجالوت وكان يحتفظ بخطاب تعيينه فى ديوان الإنشاء[21] .

ولقد وافق الخلفاء العباسيون على استمرار بيت البستانى فى وظيفة رأس

الجالوت على أن يحتفظوا بنفس اللقب بالإضافة إلى احتفاظ كل منهم بلقب «ناسى» أو «أمير» ، وعلى أن يكون منصب رأس الجالوت وراثيا فيما بينهم[٢٢] . ولقد وجد خطاب بتعيين رأس الجالوت سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م وورد أن رأس الجالوت هذا ألقى بعض أبيات شعر عربى أمام الخليفة المقتدر العباسى يمدحه فيها عند تسلمه قرار التعيين[٢٣] .

وتولى منصب رأس الجالوت فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور رأس الجالوت عنان بن داود[٢٤] . ويقول عنه الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل عند حديثه عن طائفة اليهود العنانية[٢٥] أنه إلى رأس الجالوت عنان بن داود هذا تنتسب طائفة اليهود العنانية ، ويضيف المقريزى عن عنان هذا عند حديثه عن الطائفة العنانية بقوله « أنهم ينتسبون إلى عنان رأس الجالوت الذى قدم من المشرق فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور ومعه نسخ المشنا الذى كتب من خط النبى موسى. وكان عظيما عند اليهود يرون أنه من ولد داود عليه السلام وعلى طريق فاضله من النسك على مقتضى ملتهم ، ويضيف المقريزى بأن الخليفة كان يكرمه وأنه كان مقربا له[٢٦] .

وكان رأس الجالوت أيام الخليفة المتقى العباسى (٣٢٩ - ٣٣٣هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤م) هو دانيال بن حسداى وهو من عائلة البستانى[٢٧] . وذكر أنه كان له السلطان على جميع أبناء ملته الساكنين فى كافة البلاد الخاضعة للخليفة[٢٨] ، وورد أن دانيال كان يستعين بمعاونين عشرة [٢٩]، وأن المسلمين كانوا ينعتونه بلقب سيدنا ابن داود ويسميه اليهود سيدنا رأس الجالوت .

وكان الخليفة المتقى بن المقتدر هو الذى مكن له الأمر فيهم وبوأه الرياسة عليهم حتى أصبح من الفرائض على المسلمين واليهود على السواء الوقوف إجلالاً له إذا كانوا بحضرته ومن لم يقف ضرب مائة سوط . وكان دانيال يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس وإذ ذاك يصيح الفرسان اليهود والمسلمين من أمامه

قائلين : «اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود» . وكان دانيال يتعمم ويمتطى جواده فإذا وصل عند الخليفة ترجل وقبل يد الخليفة وتفقد مكانه كل ذلك وأمراء المسلمين وكبارهم وقوف بين يديه[٣٠] .

وترجع الأهمية التى أحرزها رأس الجالوت لدى بلاط الخليفة إلى ما أحرزته الحاخامية اليهودية آنذاك من مركز مالى عظيم أيام الخليفتين المقتدر بالله وابنه الراضى بالله (٢٩٥ - ٣٢٩هـ/ ٩٠٧-٩٤٠م)، ولما كان جهابذة اليهود يقدمونه من قروض لخزانة الدولة وقت تعرضها للضائقة المالية[٣١] .

ولقد أعجب الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الذى زار بغداد حوالى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م فى عهد الخليفة المستنجد بالله العباسى (٥٥٥ - ٥٦٦هـ) بالوضع الممتاز الذى كان لرأس الجالوت فى بلاط الخليفة ووصف بالتفصيل فى كتاب رحلته لقاء الخليفة له ومن هذا الوصف قوله[٣٢] :

«حين يذهب الحاخام للمثول بين يدى الخليفة يحجز لنفسه موعداً مسبقا مع رجال بلاط الخليفة. وحين يصل إلى البلاط الخلافى يستقبله رجال البلاط استقبالا حارا فيقوم بدوره بتوزيع بعض الأموال عليهم إلى أن يصل إلى مكان وجود الخليفة فيمسك به الخدم من يديه باحترام، وعند مواجهته للخليفة يركع الحاخام أمامه ويشير الخليفة للخدم بأن يساعدوا الحاخام على الوقوف وأن يجلسوه، فى مكان أعد له بجوار الخليفة فيفعلوا ذلك. ثم يبادر الخليفة الحاخام بالسؤال عن صحته وعن سبب مجيئه فيطلب الحاخام الأذن له بالكلام فيأذن الخليفة له فيبدأ بالدعاء للخليفة والثناء عليه ثم يعرض بعد ذلك مسألته التى يجيب الخليفة عنها أو يأخذ وعدا بإجاباتها. وبعد أن يفرغ رأس الجالوت من زيارته يستأذن الخليفة فى الرحيل فيأذن له فيرحل فى هدوء وسكينة ويودع بمثلما قوبل به من الترحاب » .

ونظراً للمكانة الممتازة التى أحرزها رئيس اليهود عند خلفاء وحكام المسلمين نجده يخاطب بألفاظ التعظيم عند الكتابة إليه ، وهنا لك نص أورده القلقشندى عند حديثه عن ألقاب رؤساء اليهود بقوله أنه كان يكتب لرئيس اليهود بالشام سنة ٦٢٦هـ بصورة ما رآه من بعض التواقيع له من إنشاء القاضى محيى الدين بن الزكى ما نصه : الرئيس ، الأوحد ، الأعز ، الأخص، الكبير ، شرف الطائفة الإسرائيلية فلان»[٣٣] .

هذا ولقد ظهرت وظيفة دينية أخرى كبرى عند اليهود وتحت راية الحكم الإسلامى، ولم تكن هذه الوظيفة تقل فى خطورتها عن وظيفة رأس الجالوت إن لم تكن تأتى فى المرتبة الأولى من الأهمية عند شعب اليهود ، هذه الوظيفة عرفت باسم الجاءونية وعرف صاحبها باسم الجاءون أو الجاعون .

والجاءون كلمة عبرية وجمعها جاؤنيم وتعنى حرفيا : الأفخم أو المعظم[٣٤] وكان هذا اللقب يعطى لكبار علماء الشريعة اليهودية الذين أعقبوا التمود مباشرة، أى من القرن الخامس الميلادى إلى مستهل القرن الثانى أو بعد ذلك بقليل[٣٥] .

وقد وجدت هذه الوظيفة فى الأكاديميتين اليهوديتين الكبيرتين فى العراق فى بلدتى سورا وبمباديثا[٣٦] . وكان اليهود يعتبرون هاتين الأكاديميتين صاحبة السلطة الدينية العليا فيما يختص بأمورهم الدينية وبقانونهم المدنى[٣٧] وتخول هذه الوظيفة لصاحبها الإجابة على أسئلة اليهود الشرعية والقانونية التى ترد من مختلف البلاد التى يوجد اليهود فيها . ويرسل الجاءون نوابا عنه إلى البلاد يسمون نواب (بكيديم)، وكانت مهمتهم تفسير أحكام الجاءون وفض المنازعات بين اليهود وجمع تبرعات شعب اليهود للجاءونية .

ولقد أجمع كتاب اليهود وخاصة لويس جنزبرج الأستاذ بمعهد اللاهوت

اليهودى فى نيويورك على أن وظيفة الجاءونية نمت وازدهرت فى ظل راية الحضارة الإسلامية برغم أن وجود الأكاديميات اليهودية يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح ووجود لقب الجاءون يرجع إلى ما قبل فتح العرب للعراق بنصف قرن[٣٨]. وأجمع أيضاً هؤلاء الكتاب على أن اليهود مدينون للحضارة الإسلامية بازدهار وظيفة الجاءونية التى حملت لواء نشر التعاليم اليهودية وتصحيحها بين اليهود بفضل الحرية الدينية التى كانت تكلفها لهم الدولة الإسلامية وبفضل حرية التنقل فى العالم الإسلامى وحرية التعليم الأمر الذى أدى إلى إتاحة الفرصة لرجال الجاءونية اليهود للقيام بنهضة دينية وأدبية يهودية كبرى أتاحت لهم فرصة تصحيح التلمود وتعاليمه وتطبيق هذه التعاليم تطبيقا صحيحاً .

ولو حاولنا أن نعرف الفرق بين وظيفة الجاءون ووظيفة رأس الجالوت نجد أن منصب رأس الجالوت كان منصبا سياسيا دينيا، أما منصب الجاءون فكان منصبا «دينيا» فقط ولا دخل لصاحبه فى السياسة. ولقد ظل منصب رأس الجالوت منصبا سياسيا فى العصر العباسى واستمر أصحابه فى بغداد يورثونه لأبنائهم من بعهم طالما كانوا يقدمون الهدايا للخلفاء ويرسلون إليهم الجزية المقررة على بنى جلدتهم. وفى ذات الوقت أصبحت للجاؤنية سلطة دينية كبرى فاق صاحبها سلطة رأس الجالوت. ولم يكن مقر الجاءونية فى بغداد ولكنه كان فى بلدتى سورا وبمباديثا مركز الديانة اليهودية. ولقد بذلت الجاءونية جهدا كبيرا فى محاولة تهذيب التلمود وتطبيق مبادئه الصحيحة على اليهود عمليا فى جميع أمور حياتهم ومن هنا ظهرت خطورة مركز الجاءونية لدى جماعات اليهود[٣٩] .

ويقول ناتان البابلى أن جاءون أكاديمية سورا يحل محل رأس الجالوت عند وفاته وحتى يتم اختيار خليفة له[٤٠] . ولقد ظل لقب الجاءون يطلق فقد ولمدة طويلة على رئيس أكاديمية سورا ، بينما كان يطلق على زميله فى بمباديثا لقب رأس الشفعة Res - Yeshivah ومنحت حكومة بغداد بعض الامتيازات لجاءونية

سورا زيادة عن جاعونية بمبادثيا ولم تتم المساواة بين الجاعونيتين فى الامتيازات والألقاب إلا متأخراً .

أما عن حقيقة عمل جاعونية سورا فوفقا لما أورده ناتان البابلى[41] فإنه بالإضافة إلى الاجتماعات الدينية العادية التى كانت تعقد وتناقش فيها مسائل شريعة التلمود فإن المعلمين والحواريين يعقدون فى كل عام بها اجتماعين كبيرين خلال شهرى آزار وأيلول (نهاية الشتاء ونهاية الصيف) ويفدون إلى مقر الجاعونية من كل العراق وخلال أسابيع أربعة تعقد جلسات علمية تحت أشراف الجاعون. ويجلس الحاضرون فى سبعة صفوف يحتوى كل صف على عشرة أشخاص كل حسب درجته الدينية. ويشكل هؤلاء السبعون مجلس العلم ويقومون بمدح السنهدرين (المجلس الدينى الأعلى لليهود). ويجلس خلف هؤلاء السبعين أربعمائه من الحواريين ويبدأ الجلسة أحد المعلمين بسؤال خاص بتشريعات التلمود التى تكون قد درست فى الاجتماع الفائت ويجيب أفراد الصف الأول عن هذا السؤال ثم يقوم الرئيس بتلخيص الموضوع وشرحه ، وعادة ما يطرح الرئيس مواضيع للمناقشة ويقوم رجال الصف الأول بالمناقشة المطولة فيها ، ويشترك أفراد الصف الثانى أيضا فى المناقشة . وخلال الأسبوع الأخير يقوم الجاعون بامتحان الدارسين ومن يرسب فى الامتحان يعنفه الجاعون بشدة لتراخيه وكسله وربما يتعرض لانقاص معاشه. وفى آخر المدة يطلب الجاعون من الجميع دراسة موضوع محدد فى التشريع اليهودى للاجتماع المقبل ، وخلال هذه الاجتماعات تناقش أيضاً الاستفسارات الدينية المتنوعة التى ترد إلى الجاعون من مدن وبلاد متفرقة كذلك الاستفسارات العامة. وبعد مناقشة كل هذه الموضوعات وفقا لتشريع التلمود يقوم الرئيس بإعلان القرارات التى تسجل فورا على الورق . كما تجهز الإجابات على الأسئلة الواردة من البلاد لردها إلى أصحابها بواسطة رسل يكونون فى انتظارها .

وكان يلحق بهذه الأكاديميات محاكم عليا تنظر فى القضايا الشرعية ويحضر الجاءون بنفسه القضايا الهامة منها . أما القضايا الأقل أهمية فكان ينظرها مساعده الذى يحمل لقب رئيس المحكمة (أف بيت الدين) . وكان اليهود الذين يرسلون باستفساراتهم إلى الأكاديميات اليهودية يرسلون بدورهم جعلا من المال لصالح هذه الأكاديميات وكان جاءون سورا يتسلم سنويا حوالى ١٥٠٠ دينار من مدينة البصرة، بينما يحصل جاءون بمباديثا (الأنبار) نصيبه من مدن شمال العراق. وكان الجاءون يختار أفرادا من المثقفين فى الشرع اليهودى والتلمود لتولى منصب القضاء ويصبحوا ديانيين وكان هؤلاء ممن يحملون لقب «رابى» ويعطيهم الجاءون شهادة يخول لهم فيها مجلس الأكاديمية الأعلى بممارسة القضاء . وكان يكتب فى هذه الشهادة ما نصه :« وقع اختيارنا على فلان) ديانا فى (كذا) ونحن نعطيه الحق والسلطة فى ممارسة القضاء فى الامور القانونية والتشريعية ، كذلك فى النظر فى شتى الامور التى تتعلق بالقضاء ، ولهذا الديان حق التعامل مع من يشاء ولا رد لما يحكم به ونحن واثقون أنه تحت رعايته سوف لا يكون هناك مظلوم أبدا أمام الله»[٤٢].

وكان كل ديان يرأس المجالس التعليمية فى منطقته وينظر فى قضايا يهود منطقته وفى أمور زواجهم وطلاقهم. وكان هذا الديان يتسلم مبلغا من المال من الاهالى مقابل النظر فى كل حالة من صاحب الحالة. هذا فضلا عن تسلمه من أهالى منطقته عيدية خاصة يدفعها إليه كل يهودى يزيد سنه عن العشرين. كذلك يتسلم من جزارى منطقته اليهود كمية من اللحم بسبب قيامه بعملية مباركة الذبح.

ذكر كتاب اليهود أن الخليفة على بن أبى طالب حين فتح مدينة بروز شابور القريبة من بمباديثا تقدم إليه حاخام أكاديميتها اليهودية ورحب بالخليفة باسم جماعات اليهود مما جعله يرضى عنه ويرسمه رئيسا دينيا لأكاديميتى

اليهود الرئيسيتين فى بمبادثيا وسورا وينعم عليه بلقب جاءون[٤٣] .

ولقد استمر الجاءونيم يزاولون نشاطهم الدينى والثقافى عن طريق أكاديمياتهم فى العراق فى العهد الأموى برغم انتقال الثقل السياسى والدينى للدولة الإسلامية إلى الشام فى عهد دولة الأمويين، وبرغم ازدهار أكاديمية فلسطين اليهودية فى هذا العهد. كذلك عاد لأكاديميتى العراق اليهوديتين ازدهارهما فى بداية حكم العباسيين وذلك لانتقال مركز الثقل السياسى والدينى فى عهدهم من الشام إلى العراق . واستمرت الجاءونية قائمة فى العهد العباسى الأول مع أن المصادر لم تذكر لنا شيئا عنها إلا فى منتصف القرن الرابع الهجرى وقت ظهور شخصية الجاءون سعديا سعيد الفيومى (٢٧١-٣٣١هـ/ ٨٨٢- ٩٤٢م) الذى تكونت بفضل تعاليمه جماعة اليهود الربانيين والذى وضع تنظيما دينيا فلسفيا لليهودية .

والجاءون سعديا مصرى الموطن ينتسب إلى مدينة الفيوم وكان معاصراً لرأس الجالوت داود بن زكى وذلك فى خلافة المقتدر العباسى[٤٤] . عين جاءونا على أكاديمية سورا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وكان معاصراً له على جاءونية بمباديثا الجاءون الرابى جودة الذى توفى سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م[٤٥] . وهنالك خطابات وجدت فى الجنيزة للجاءون سعديا أرسلها إلى مصر من بلدة سورا سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م تفيد تعيينه جاءونا على أكاديميتها[٤٦] . كذلك وجدت خطابات ارسلها إلى داخل مصر لبعض أصدقائه[٤٧] ويقول عنه ابن النديم المعاصر له[٤٨] : « أنه من أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية ويزعم اليهود أنها لم تر مثل الفيومى واسمه سعيد ويقال سعديا وكان قريب العهد وقد ادركه جماعة فى زماننا وله من الكتب كتاب المبادىء وكتاب الشرائع وكتاب تفسير اشعياء وكتاب تفسير أحكام داود وكتاب تفسير النكت وهو تفسير زبور داود عليه السلام وكتاب تفسير الثالث من النصف الآخر من التوراة وشرح

لتفسير كتاب أيوب وكتاب اقامة الصلوات والشرائع وكتاب العبور وهو التاريخ[٤٩] .

وكان الفيومى طبيبا ماهرًا وفيلسوفًا كبيرًا ولغويًا وشاعرًا ، بالإضافة إلى كونه تاجرًا فهو رائد التجار اليهود وكانت له ثروة كبيرة من التجارة العالمية بين الشرق والغرب[٥٠] . ذهب فى شبابه الباكر إلى بغداد وتعلم فى أكاديمية سورا واستطاع بفضل علمه وثقافته وتقواه أن يصل إلى وظيفة جاءون سورا وأن يكون الرئيس الدينى لجماعة اليهود[٥١]. والجاءون سعديا هو أول من نقل التوراة من العبرانية إلى العربية ووضع شروحًا وتفاسير عليها بالعربية[٥٢] . وكان نقله للتوراة إلى العربية من النص العبرى الأصلى[٥٣] . ويعتبر سعديا أول فلاسفة اليهود الربانيين والمتكلم عنهم ضد الفريق اليهودى الجديد الذى قام على يد عنان إبن داود والذى عرف باسم القرائين[٥٤] .

وكانت أكاديميتى العراق اليهوديتين فى سورا وبمباديثا ربانية تلمودية تدين بالنص المكتوب وبالنصوص الشفوية (التوراة والتلمود) . وفى أكاديمية سورا كان الربانيون هم المسيطرين على الحياة اليهودية ، وما لبث أن نفذ الفكر المعتزلى إلى رجال هذه المدرسة . وظهر فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور أحد علماء اليهود الذى بشر بحركة عقلية جديدة وهو العالم اليهودى الحاخام عنان إبن داود الذى أنشأ فريقا مقابلا للربانيين وهو فريق العنانية أو القرائين وقد أعلن عنان الثورة على الربانيين وعلى سطاتهم الدينية ونقض القوانين اليهودية التقليدية ودعا إلى استخدام العقل وتطبيق مبدأ البحث الحر فى الشريعة اليهودية .

وكان القراءون أثرًا من آثار المعتزلة بل كانوا تابعيها فى التراث اليهودى[٥٥] .

ولقد كانت آراء وتعاليم القرائين صدمة كبرى للربانيين ، وكان الربانيون فى حاجة إلى من يرد على هؤلاء القرائين وهنا ظهر سعديا وتصدى للقرائين ودافع عن الربانيين بالعربية الفصحى فى كتبه التى كان أهمها كتاب : الأمانات والاعتقادات[٥٦]، فترأس بذلك على اليهود الربانيين الذين انقادوا لرياسته طواعية واختياراً[٥٧] ..

وانتصر الربانيون فى معركتهم على القرائين بفضل ردود سعديا وقوة حججه ، وأصبح مذهبهم هو المذهب الرسمى فى الدولة عند جماعة اليهود. وجرت عادة الدولة العباسية منذ بداية عهدها الثانى أن يكون رئيس اليهود من طائفة الربانيين دون الطوائف الأخرى وأن تكون لهم السيادة على غيرهم من اليهود[٥٨] .

ولقد اعتبر مؤرخو الفكر اليهودى أنفسهم الأقدمون منهم والمحدثون الجاءون سعديا أعظم رجال الفكر اليهودى قاطبة إذ أنه كان أول العلماء الربانيين الذين اقبلوا على استخدام العقل والبرهان فى إقامة فلسفة يهودية أولاهوت يهودى يستند على الكتاب والعقل معا[٥٩].

توفى سعديا فى بغداد سنة ٣٣٠هـ/٩٤٢م ، وبعد موته لم نسمع عن جاءون بنشاطه ولم نسمع عن نشاط لجاءونية سورا ، ولكننا رأينا تلاميذه وأتباعه ينشطون فى نشر تعاليمه بين يهود العالم فى شتى البقاع خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين.

ومن الجاءونيم الذين وردت أسماؤهم فى الوثائق بعد سعديا :

الجاءون حنانيا بن جوده الذي جاءونا فى سورا مدة خمسة أعوام ونصف (٣٣٧- ٣٤٢هـ/ ٩٣٨ - ٩٤٣م) . والجاءون نحميا (٣٤٩ - ٣٥٧هـ/ ٩٦٠ - ٩٦٧م) . الجاءون شيريرا بن حنانيا بن جودة (٣٥٧ - ٣٧٥هـ / ٩٦٧ - ٩٨٥م) .. والجاءون حى بن شيريرا (٣٧٥ - ٣٩٧هـ/ ٩٨٥ - ١٠٠٦م)[٦٠].

ولقد اقتصر نفوذ جاعونات العراق على يهود الدولة العباسية فى أراضى العراق وفارس ولم يشمل يهود الشام، ذلك بسبب وجود أكاديمية فلسطين اليهودية هناك التى كانت تواصل نشاطها الدينى والتعليمى منذ الفتح الإسلامى للشام . ولقد كان يرأس اليهود هنالك جاعون فلسطين والناسى وكانوا ربانيين وتعد عائلة مائير من أول العائلات التى تولت جاعونية فلسطين مع بداية الفتح الإسلامى لها[٦١] . كذلك رأست هذه العائلة أكاديميتها وبيت دينها ومعلوماتنا قليلة عن هؤلاء الجاعونات ابتداءا من الجاعون ابن مائير حتى الجاعون يوشع (١٠١٥ - ١٠٢٠م) .

ونسمع فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى عن اسم الجاعون يوسف كوهين وابنه إبراهيم على أكاديمية فلسطين . ولقد تولى الجاعونية فى فلسطين الجاعون كوهين بن يوسف حوالى نهاية هذا القرن. ويأتى ترتيب جاعونات فلسطين حسب ما ورد فى وثائق الجنيزة كالتالى :

١ - موسى.
٢ - موسى (الثانى) .
٣ - مائير (الأول).
٤ - يهودا بن مائير (٩٢١م)
٥ - مائير (الثانى)
٦ - إبراهيم .
٧ - يوسف كوهين .
٨ - هارون .
٩ - إسماعيل كوهين .
١٠- يوشع (١٠١٥م) .
١١- سليمان كوهين .
١٢- سليمان بن يهودا (١٠٥١م)[٦٢] .
١٣- دانيال بن عزاريا (١٠٥١-٦٢).
١٤- الياهو كوهين (١٠٦٢-٨٣).
١٥- أبيكار كوهين (١٠٨٣-١١٠٥)
١٦- سليمان كوهين (١١٠٥-١١١٦)[٦٣] .

***

مع قيام الدولة الفاطمية فى مصر انفصل يهود المشرق عن يهود المغرب وقامت رئاسة جديدة ليهود الغرب فى مصر وفلسطين. وعرف رئيس اليهود الجديد باسم «سرهساريم (أمير الأمراء) أو باسم الناجد (الأمير) ، أو أمير الدياسبورا (أمير الأكاديمية الرئيسية لليهود)[٦٤] . واستقل هذا الرئيس عن رأس الجالوت فى العراق ، وقام بتعيين أحبار اليهود فى مصر والشام، أى فى حدود دولة الفاطميين. وجمع صاحب هذه الوظيفة بين اختصاصات رأس الجالوت السياسية واختصاصات الجاءون الدينية[٦٥] فى مصر . أما الشام فلقد كانت خاضعة روحيا لجاءونات فلسطين الذين واصلوا سيادتهم الدينية هناك .

وكان انقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة مما أثر فى تنظيم المجتمع اليهودى ، ولذلك نجد ببغداد رأس الجالوت الذى يسرى نفوذه على اليهود شرقى الفرات ، ونجد فى القاهرة الناجد الذى له السيطرة على يهود الغرب. ولقد تكلف الفاطميون إيجاد هذه الوظيفة الخاصة بالقاهرة رغبة منهم فى معارضة كل ما هو بغدادى[٦٦] .

وكان الناجد يعين ، مثل رأس الجالوت ، من قبل الخليفة ، كذلك كانت سلطته السياسية محدودة مثل سلطة رأس الجالوت[٦٧]. وكان الناجد يمثل جماعة اليهود أمام الحكومة ويقوم بتعيين القضاة (الديانيين) فى المقاطعات ويشرف على المحاكم اليهودية وعلى مختلف أوجه نشاط اليهود فى مصر والشام. كذلك كانت له السلطة على بيت الدين اليهودى فى الفسطاط. وكانت هذه الوظيفة تمنح لصاحبها اما بسبب علمه أو لوزنه السياسى على أن يكون أساسا من جماعة الربانية دون غيرها وبذلك يرأس الربانية والقرائين والسامريين[٦٨] .
وكان الناجد عالما وواعظا يعينه الخليفة كرئيس سياسى وروحى لليهود وكانت سلطته الروحية كسلطة الجاءون الناسى فى فلسطين اللذين كانت لهما السلطة الروحية فقط فى فلسطين. وكانت سلطة الناجد تزداد ومركزه يقوى كلما ازداد

علمه وبرزت ثقافته. ولقد أحرزت سلالة بيت داود شرف النجادة على يهود مصر[٦٩] . وكان من حق الناسى أن يخلف الناجد فى مركزه، ولقد وجدنا فى وثائق الجنيزة ناجدين كانوا ناسيين قبل أحرازهم لمركز النجادة مثل مبارك بن سعديا وابنه موسى، كذلك الناجد موسى بن إسماعيل .

ويبدو أن أول ناجد عينه الفاطميون هو الناجد بلطيل الذى لعب دوراً هاما فى عملية فتح الفاطميين لمصر ولقد كان وقتها رأس جماعة اليهود فى مصر واستمر كذلك فى بداية حكمهم[٧٠] . وخلف بلطيل بعد وفاته ابنه إسماعيل ثم خلف إسماعيل ابنه يوشع (ت حوالى ١٠٦٥م). وبعد ذلك آلت النجادة إلى طبيب البلاط اليهودى يهودا بن سعديا (١٠٦٥- ٧٩م) ثم إلى أخيه مبارك بن سعديا (١٠٧٩ - ١١١٠) . كذلك تولى هذا المنصب الشيخ المهذب أبو الحسن بن الموفق إبن إسماعيل الطبيب وكتب له التوقيع برئاسة الفرق اليهودية والقرائين والسامرية فى جميع ديار مصر[٧١] كذلك تولى هذا المنصب فى أواخر أيام الفاطميين (منتصف القرن السادس الهجرى) الطبيب أبو منصور إسماعيل بن حنانيا الذى كانت له المكانة العالية فى البلاط الخلافى واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى عهد الأيوبيين سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م[٧٢] .

هذا ولم تكن لمنصب الناجد فى أواخر دولة الفاطميين قوته التى كانت له أيام مجدها[٧٣] . ولم يتول هذا المنصب شخصية ذات بال إلا الناجد إسماعيل بن حنانيا .

وفى بداية عهد حكم الأيوبيين لمصر نسمع عن رجل يحل محل الناجد إسماعيل بن حنانيا فى منصبه لمدة ٦٦ يوماً ، ويدعى هذا الرجل سارشالوم وعرفه المسلمون باسم زوطة[٧٤] . ونقرأ فى سيرة زوطة هذا[٧٥] أنه دفع مبلغا من المال للحكومة للوصول إلى هذا المنصب ووعد بأن يجمع مثل هذا المبلغ سنويا من اليهود ويقدمه للحكومة[٧٦]. لكن زوطة هذا لم يستمر فى منصب

الناجد إلا ٦٦ يوما أعيد بعدها ثانية صموييل بن حنانيا ناجدا واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وظل منصب الناجد شاغرا بعد وفاة صموييل وأهمل أمره مدة ثم اعيد إليه زوطه ثانية بعد أن تعهد بأن يدفع للحاكم المسلم مائتى دينار فى كل عام. واستمر زوطة شاغلا لمنصب الناجد مدة أربع سنوات (٥٦٥/ ٥٦٩/ ١١٦٩-١١٧٣م أو من ٥٦٧-٥٧١هـ/ ١١٧١ - ١١٧٥م)أتعب فيها اليهود كثيرا وأثقل كاهلهم بطلب الأموال . وبانتهاء السنة الرابعة لرئاسة زوطة نسمع أن بيت ميمون خلف زوطة فى تولى منصب الناجد ورئاسة اليهود، ولم يخبرنا صاحب تاريخ زوطة عن كيفية وقوع ذلك. ويقول صاحب التاريخ أن زوطة عاد إلى منصب الناجد فتولاه للمرة الثالثة بموافقة الحكومة المصرية ليكون عينا لها على اليهود، وأنه استمر فى هذا المنصب هذه المرة سنتين آخريتين، وفى آخر الأمر تقدم وفد يهودى إلى السلطان واستطاع اقناعه بضرورة عزل زوطة عن هذا المنصب فوافق السلطان على ذلك وقام بعزله .

ولقد ذكر دارسو وثيقة زوطة أن تعيينه ناجدا للمرة الثالثة تم فى بداية عهد حكم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصر، ذلك لأن الطومار الذى يروى تاريخ هذا الناجد يروى أحداثا وقعت فى الفترة ما بين موت الناجد صموييل بن حنانيا وتولى ابن ميمون منصب الناجد وهى الفترة التى ولى فيها صلاح الدين حكم مصر[٧٧] .

وجاء اختيار زوطة ناجدا للمرة الثالثة فى وقت فقد فيه هذا المنصب قيمته بسبب أن رئاسة اليهود أصبحت منذ عهد صلاح الدين تتبع الأكاديميات العراقية كما كان عليه الحال قبل قيام حكم الفاطميين فى مصر والشام. فمع انتهاء الخلافة الفاطمية عادت تبعية مصر للمذهب السنى وللسيادة العباسية وبالتالى عادت تبعية يهود مصر والشام لأكاديمية العراق وتبعية رأس جالوت بغداد . ومما يثبت عودة سيادة أكاديميات العراق على يهود مصر والمغرب بعد

زوال دولة الفاطميين ذلك الخطاب ، الذى وجد ضمن خطابات جنيزة القاهرة[٧٨] وقام بارساله رأس الجالوت دانيال بن حسيداى من بغداد إلى ناثينال ليفى بن موسى رئيس يهود الفسطاط سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م يقر فيه تعيينه ناجدا على يهود مصر[٧٩] . وكان ناثينيال ربانى المذهب ، وكانت عادة العباسيين قد جرت منذ عهدهم الثاني بأن يكون اختيار رئيس اليهود من طائفة الربانيين دون سائر الطوائف الأخرى[٨٠] . كذلك هنالك خطاب - ورد ضمن خطابات الجنيزة - موجه من رئيس اليهود فى مصر إلى بغداد يشكو فيه صاحبه من وصول امام غير مقبول ارسل لهم من بغداد[٨١] .

ولقد نجح الناجد ناثينال في أن يمد نفوذه حتي شمل رئاسة كل اليهود خارج فلسطين وكانت علاقة هذا الناجد طيبة مع الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ)

وخلف ناثينال فى منصب الناجد الطبيب موسى بن ميمون ، ولقد اعترفت أكاديميات العراق بتولى موسى بن ميمون وظيفة الناجد فى مصر[٨٢] . وفى خطاب أرسله موسى بن ميمون إلى يوسف بن يهوذا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م يخبرنا فيه ابن ميمون إنه تسلم من أكاديمية بابل اعترافا بجاعونيته على مصر وأنه قرأ هذا الخطاب أمام جمع كبير لمشاهير اليهود[٨٣]. وورد أيضا أن السلطان صلاح الدين منح ابن ميمون لقب رأس الأمة تشريفا وتعظيما له[٨٤] وأنه ظل رئيسا دينيا لليهود فى مصر والشام حتى وفاته حوالى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م وإلى موسى بن ميمون ينحدر كل الناجدين الذين ترأسوا يهود مصر من بعده[٨٥].

وبعد وفاة موسى بن ميمون تولى ابنه إبراهيم وظيفة الناجد على يهود مصر فى الفترة ما بين (٦٠١-٦٣٥هـ/ ١٢٠٤ - ١٢٣٧م)[٨٧] . وكان إبراهيم قد نشأ بالفسطاط وكان طبيبا مشهورا عالما بصناعة الطب جيدافى أعمالها وكان

فى خدمة الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب(٨٨) . ويحكى الطبيب ابن أبى أصيبعة(٨٩) أنه التقى به سنة ٦٣٠هـ أو ٦٣٢هـ فى بيمارستان القاهرة وذكر أنه توفى بمصر فى الثلاثينيات من سنة ستمائة(٩٠).

وخلف إبراهيم بن ميمون فى منصب الناجد بمصر من بعده ابنه داود وهو فى سن السادسة عشرة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م واستمر فى هذا المنصب حتى وفاته وهو يناهز المائة عام وأربعة. ولقد عمال ابنه إبراهيم ناجدا معه فى أواخر أيام حياته بسبب كبر سنه(٩١) - وكان من سلالة إبراهيم بن داود ابنه يوشع الذى صار ناجدا بعدأبيه حتى وفاته سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٥م وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وآخر ناجد فى عائلة ميمون هو داود بن يوشع الذى نجده لغير ما سبب موجودا فى دمشق وحلب عدة سنين (حوالى ٧٧٧ - ٧٨٨هـ / ١٣٧٥ - ١٣٨٦م) مع استمراره ناجدا على مصر. وظل داود ناجدا حتى بداية القرن التاسع الهجرى. وليست هنالك معلومات تفيد عن عودة داود إلى القاهرة بعد إقامته فى سوريا. وبانتهاء مدة داود هذا تنتهى فترة الناجدية فى عائلة ميمون ، وتنتقل منهم إلى عائلة أخرى وليس هنالك أية معلومات عن ظروف هذا التحول وعن مصير عائلة ميمون . وهنالك نص وحيد جاء به كارمولى Carmoly قال فيه أن داود مات فى دمشق مخلفًا اثنين من أولاده سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م . وبعد ذلك لانجد أخبارا للناجدين فى الفترة الممتدة منذ ذلك التاريخ حتى الفتح العثمانى لمصر ، وكل ما ورد هو بعض أسماء لهؤلاء الناجدين . فنسمع عن ناجد فى سنة ١٤٢٢م يسمى سيمون ، وعن ناجد آخر سنة ١٤٦٥ يسمى يوسف بن خليفة، كذلك نسمع عن ابنه سليمان فى سنة ١٤٨١ ، ومن خلفاء سليمان نسمع عن ناتان كوهين شولال وابن عمه اسحق شولال(٩٢) .

وفى وثائق الجنيزة أطلق على الناجد ألقاب عديدة مثل ألقاب : «هدية

الأيام»، «ناجد الشعب الطيب»، «ناجد إسرائيل ويهودا» ، « ناجد الدياسبورا» «تاج أصحاب المقام» ، « أمين الملوك» ، وغيرها(٩٣) .

ولقد استمر ناجد مصر ناجداً على الشام وفلسطين إلى ما قبل اندلاع الحروب الصليبية ، ولكن لما استقر الصليبيون فى الشام فقد الناجد سلطته هناك ، وبعد أن أعاد صلاح الدين الشام وانتصر على الصليبيين وافتتح القدس اقيم بها منصب جديد ليهود الشام عرف صاحبه باسم رئيس اليهود . ولقد تحدث القلقشندى عن رئيس اليهود فى الشام وكان عبادة بن علا هو أول من حمل هذا اللقب وكذلك هليل بن موسى(٩٤) .

***

ولقد ظلت أكاديمية فلسطين اليهودية تواصل نشاطها الدينى والعلمى فى عهد الفاطميين وعاون الخلفاء الفاطميون فى استمرار قيام هذه الأكاديمية. وهنالك خطاب فى الجنيزة أرسله أحد رؤوس الأكاديمية إلى أحد خلفاء الفاطميين يمتدح هؤلاء الخلفاء لإبقائهم على وجود هذه الأكاديمية واستمرار تعاليمها وأقر صاحب الخطاب بأن هذا التقليد ظل متبعا طوال عهد الفاطميين(٩٥) .

وكانت الحكومة الفاطمية تقدم منحة سنوية ثابتة للنفقة على هذه الأكاديمية التى كانت مقرها فى مدينة القدس للصرف عليها ولصيانتها. وأعطى هذا التصرف الحق لهؤلاء الخلفاء فى انتخاب رئيس هذه الأكاديمية(٩٦) .

وكان يشرف على أكاديمية فلسطين سبعون معلما ربانيا معينون يسمون السنهدرين (المجلس الدينى الأعلى لليهود). والسبعة الأول من هؤ لاء العلماء هم : الجاءون ، وأب بيت الدين ، وخمسة آخرون مقدمون ، وكان السبعون عالم يجلسون فى صفوف سبعة يتكون كل صف منها من عشرة كما كان الحال فى

أكاديمية بابل ، وكان السبعة علماء الأول يرأسون الصفوف السبعة كل عالم منهم على رأس صف من هذه الصفوف. والجاعون يرأس الصف الأول بينما يرأس أب بيت الدين الصف الثانى. وكان الجاعون وأب بيت الدين والمعلم الثالث يديرون في العادة شئون الأكاديمية في مناسباتها المختلفة وكان من أهم مهام هذه الأكاديمية وضع التقويم السنوى العبرى لليهود(٩٧) .

وتفيد وثائق الجنيزة أن مقر أكاديمية فلسطين لم يثبت باستمرار فى مدينة القدس فلقد تغير هذا المقر ووجدناه أحيانا فى مدينة الرملة وأحيانا أخرى فى مدينة عكا . وجاء هذا التغيير نتيجة لازدياد نفوذ القرائين فى مدينة القدس ونشاط مدرستها التعليمية هنا لك . وكانت القدس المركز الروحى الرئيسى للقرائين. ولقد عمل فى هذه المدرسة عدد من علماء القرائين الناسيين المعروفين وانتجوا أعمالا دينية وفلسفية عظيمة .

ولقد احتدم النزاع فى القدس بين أكاديمية الربانية بها ومدرسة القرائين التى ظهرت على يد عنان بن داود ، وكانت الغلبة للربانية فيها بعد موت عنان بن داود بقرن ونصف وأصبحت القدس مركز نشاط القرائين الهام . ولقد تصدى الجاعون ابن مائير لهؤلاء القرائين الناسيين بذرة عنان بن داود . وهنالك خطاب لابن مائير محفوظ فى جنيزة القاهرة عرفنا منه مدى تفوق القرائين فى القدس على الربابنة ونقرأ فى هذا الخطاب ان ابن مائير ذهب إلى بغداد ليطلب من الخليفة العباسى وقف تزايد نفوذ القرائين فى القدس(٩٨). ولقد استفاد القراءون من خروج مصر عن تبعية بغداد فى عصر الطولونيين ليحرزوا الزعامة فى الشام وساعدهم فى ذلك أخوتهم القراءون فى الفسطاط. وبسبب ذلك نقل الربانيون أكاديميتهم من القدس إلى الرملة. وحين انزاح حكم الطولونيين وعادت مصر والشام إلى حظيرة العباسيين أخذ ربابنة فلسطين فى استعادة مكانتهم فى القدس . ومع قيام حكم الفاطميين بمصر عاد للقرائين نفوذهم فى القدس

وارتحلت من بغداد أعداد كبيرة منهم واتجهت إلى فلسطين وعملت على أن يتركز نشاطها فى مدينة القدس . ومن هذه المدينة أرسلوا بعثاتهم الدينية إلى مختلف البلاد . وكان حجاج اليهود من مختلف البقاع يلتقون بعلماء القرائين اليهود فى القدس وجاء الدارسون إليهم ليتعلموا على أيديهم. ولقد جاءهم فى القرن الخامس الهجرى العالم طوبياس بن موسى من مدينة القسطنطينية والعالم ابن التراس من فرنسا ويعقوب بن سيمون من بيزنطة(٩٩) .

ومن كبار كتاب القرائين وعلمائهم الذين برزوا فى مدينة القدس أيام حكم الفاطميين :

١ - العالم دانيال بن موسى القمصى (١٠٠) .

٢ - سليمان بن يروجام المتوفى فى مدينة حلب والمدفون بها. وكان معاصراً للجاون سعديا وزار العراق ودخل معه هنالك فى مناظرات ومجادلات دينية(١٠١) .

٣ - سهل بن مصلح : وكان مفكراً شهيراً عاش فى القدس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى. ارتحل إلى بلاد كثيرة وزار الفسطاط واصطدم مع زعيم الربانية آنذاك بها هو يعقوب بن صموييل وكان هجومه عنيفا علي الربانية(١٠٢) .

٤ - يوسف بن بختويه : كان فقيها ونحويا وتتلمذ على يديه العالم سعيد شرعان الذى نظم فقه اللغة العبرية. وتشير مولفات يوسف إلى أنه كان يعيش معظم حياته خارج فلسطين وأنه استقر بها فى أواخرأيام حياته(١٠٣).

٥ - يفت بن على ليفى (الشهير بأبى على حسن البصرى) وكان من أشهر علماء القرائين وكان أصلا من البصرة واستقر فى فلسطين. أقام بالقدس عدة سنوات وكان من أكبر المتحدين للجاون سعديا .

٦ - أبو السرى بن زوطة : عاش فى النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى.

٧ – يوسف بن نوح : وكان من أهم زعماء القرائين فى القدس في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية الخامس . وكانت له مدرسة ينتظم بها سبعون عالمًا يهوديًا ، ومن أشهر تلاميذه العالم يوسف كوهين والأعشى بن إبراهيم وأبو الفرج هارون(١٠٤) .

ولقد ازدهر مركز القرائين فى القدس مع مطلع القرن الخامس الهجرى بإنتاجه الدينى واللغوى والفلسطينى والتشريعى على يد علماء أجلاء من علماء اليهود القرائين منهم :

يوسف البصيرى صاحب كتاب الاستبصار فى الشريعة (أنهاه سنة ١٠٣٦م) وأبو منصور يهودا بن دانيال والشيخ أبو الحسن داود بن عمران بن ليفى(١٠٥) .

ويأتى العالم أبو الفرج فرقان فى مقدمة علماء ذلك القرن، ولقد ترجم هذا العالم إلى العربية أسفار موسى الخمسة ووضع شروحا وافية لها سنة ١٠٥٤م . وكان أبو الفرج واسع العلم والمعرفة، جاءه كثير من طلاب العلم من مختلف البلاد وتتلمذوا على يديه وروجوا أفكاره. ولقد عارض بعض تلاميذ أبى الفرج بعض آرائه وخاصة المتعلقة بأمور الزواج والوراثة فى الشريعة اليهودية. ومن هؤلاء المعارضين أبو الفرج سهل بن فضل بن سهل التسترى(١٠٦) .

ويعد العالم على بن سليمان آخر العلماء القرائين اليهود الذين ظهروا فى القدس فى أواخر القرن الخامس الهجرى. ولقد استقر هذا العالم فى الفسطاط واتصل هنالك بسهل بن فضل التسترى(١٠٧) .

وبمجىء الصليبيين إلى فلسطين واحتلالهم القدس (١٠٩٩م) جاءت نهاية مركز القرائين هناك كما جاءت أيضا نهاية مركز الربانة بسبب موقف هؤلاء الغزاة المعروف من اليهود .

ولقد عاد الربابنة فى أعداد كبيرة إلى القدس بعد تخليصها من الصليبيين على يد صلاح الدين (١١٨٧م) وعاد كذلك القراءون إليها وأقاموا لأنفسهم بها مجتمعا خاصا . ولم تعد القدس مركزا للقرائين كما كانت لهم فى القرنين الرابع والخامس الهجريين. فلقد ارتحل عدد كبير منهم إلى الفسطاط وإلى دمشق تحت حكم الأيوبيين[١٠٨] . ولقد ركز القراءون نشاطهم فى منتصف القرن الخامس الهجرى فصاعدا فى الفسطاط وأقاموا لأنفسهم مركزا كبيرا بها على يد الناسى حزقيا وابنه حسيداى . واستمر وجود اتباع عنان بن داود فى مصر واستمرت تعاليم القرائين قائمة بها منذ ذلك العهد[١٠٩] .

***

انتشرت فى بلاد العالم الإسلامى وحدات يهودية صغيرة نشطة وخاصة فى مدن مصر الصغرى وكانت هذه الوحدات بمثابة جمعيات محلية أو مجالس بلدية . وعرف رئيس الجمعية فى كل بلد باسم « المقدم» ، وعرف بقية الأعضاء باسم «الجماعة» ولذلك كان الرئيس يعرف أحيانًا باسم مقدم الجماعة[١١٠] وكان الحاكم المسلم يوافق على تعيين صاحب هذه الوظيفة. وكان عمل المقدم هو عملا دينيا اجتماعيا فيقوم بإمامة الفلاحين اليهود فى الصلاة ورعاية اليهود الأجانب الوافدين إلى بلدته. كذلك كان عليه تسهيل أمور طائفته أمام السلطات الحكومية المركزية وأداء الخدمات الاجتماعية لليهود مثل أعانة الفقراء واليتامى والأرامل والمرضى والعجزة والاهتمام بالمراسم الدينية ومراسم دفن الموتى[١١١] .

وخضعت هذه الجمعيات لسلطة الجاءونية ، ولقد أشارت وثائق الجنيزة إلى ذلك بأنه لم تكن للحكومة الإسلامية دخل بها لأن اختصاصاتها كانت دينية واجتماعية ولم يكن لها أى نشاط سياسى[١١٢] .

ومن الوظائف الدينية التى وجدت بين اليهود فى ظل الدولة الإسلامية وظيفة (الحزان) ويقول القلقشندى عن صاحبها أنه فيهم بمثابة الخطيب يصعد

المنبر ويعظهم[١١٣] . كذلك يضيف القلقشندى وظيفة أخرى أسماها وظيفة «الشليحصبور» - وهو الإمام الذى يصلى بهم[١١٤] (القارىء) . كذلك كانت وظيفة الديان (القاضى) تدخل ضمن وظائف اليهود الدينية وهناك (الناسى) وهى وظيفة أخلاقية يكون صاحبها شريفا لنسبته إلى بيت داود[١١٥] وهو يرأس مع الجاءون أكاديمية فلسطين (ويعرف بأمير الدياسبورا)[١١٦].

وهنالك أيضا وظيفة رأس الملة اليهودية وهو لابد أن يكون عالمًا ولذلك يعد رئيسا للقضاة اليهود والديان الأكبر[١١٧] .

(والبرناص) موظف عمله حفظ كتب الشريعة والحجج الدينية الخاصة بالمعبد[١١٨] .

أما (الحبر) فهو رئيس بيت الدين وهو غير القاضى. والحبر حين يموت قاضى منطقة من المناطق ويحدث خلاف فيها حول من يخلفه يقوم بحسم الأمر ويختار هو القاضى لهذه المنطقة الخالية[١١٩] .

***

وعن الوظائف السياسية نستطيع أن نقول أن بعض رجال اليهود استطاعوا بواسطة أجادتهم التصرف فى الشئون الإدارية وخاصة المالية منها أو يصلوا إلى بعض الوظائف السياسية الهامة فى الدولة الإسلامية وذلك بعد اعتناقهم الإسلام، فوصلوا إلى منصب ولاة - الأقاليم ووصلوا أيضا إلى كرسى الوزارة وبخاصة فى عهد دولة الفاطميين[١٢٠] .

ومن اليهود الذين وصلوا إلى الوزارة بعد إسلامهم الوزير يعقوب بن كلس فى عهد - الخليفة الفاطمى العزيز بالله[١٢١] فأدار شئون الدولة الفاطمية بهمة ومهارة[١٢٢] حتى وفاته سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م وإلى ابن كلس يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة الفاطمية السياسية والإدارية[١٢٣] .

وفى عهد العزيز الفاطمى كان هنالك وال يهودى على الشام قام بتعيينه الخليفة هناك وهو منشا بن إبراهيم الفرارى اليهودى[١٢٤] ، وفى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله- الفاطمى (٤٢٧- ٤٨٧هـ) ارتفع شأن أبى سعد إبراهيم إبن سهل التسترى اليهودى وقربت والدة الخليفة المستنصر أبا سعد إليها وولته ديوانها[١٢٥]. ويقول عنه ابن منجب الصيرفى : « أن الله هداه للإسلام ويقال أنه استظهر القرآن ، وكان يتولى بيت المال ثم انتقل إلى الوزارة فأقام فيها عشرة أيام ثم استعفى »[١٢٦] . ويؤيد ابن ميسر قول الصيرفى فى تولى ابى سعد التسترى للوزارة[١٢٧].

وتشير المصادر إلى تحيز التسترى لليهود وتقلدهم فى أيامه كثيرا من مناصب الدولة الهامة الإدارية والسياسية[١٢٨] . ولقد تولى أبو نصر هارون بن سهل التسترى ديوان خاصة الخليفة المستنصر بعد مقتل أخيه أبى سعد[١٢٩].

ومن اليهود الذين أسلموا وتولوا منصب الوزارة فى عهد الفاطميين الوزير أبو منصور (أو أبو نصر) صدقة بن يوسف الفلاحى فقد وزر للخليفة المستنصر سنة ٤٤٠هـ [١٣٠].

هذا ولقد كان اليهود فى العصور الوسطى عموما يتجنبون العمل فى الوظائف الحكومية سياسية كانت أم إدارية ويفضلون العمل وبخاصة فى التجارة عملا بوصايا التوراة . ومن هذه الوصايا ورد : فتحب العمل الحر وتكره الوظيفة الحكومية ولئن تكسب فى حياتك أى كسب من عمل يدك لهو خير ألف مرة من أى وظيفة حكومية» . وكذلك هنالك عبارة تقول : « الوظائف تدفن شاغليها » . وورد عن ابن ميمون فى احدى رسائله قوله « أن اكتساب درهم واحد ثمنا لعمل فى الحياكة أو النجارة أو النسيج لهو أفضل من أى هدية قيمة يقدمها لك الحاكم»[١٣١] .

هوامش الفصل الثانى

١ - Dubnov, S : History of the Jews, V. II, London 1968 PP. 329-330.

٢ - Goitein, S : Jews and Arabs, Their contact Through the ages, New York 1955, P. 120.

٣ - المقدمة ، القاهرة ١٣٢٠ هـ، ص ٢١٨.

٤ - أورد ابن خلدون بهذا الخصوص مانصه : « بقى بنو إسرائيل بعد موسى ويوشع نحو أربعمائه سنة لا يعنون بشيء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط ، وكان القائم بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى يقيم لهم أمر الصلاة والقربات ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون عليه السلام لأن موسى لم يعقب ، ثم اختاروا لإقامة السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة. والكوهن أعظم منهم مرتبة فى الدين وأبعد عن شغب الأحكام. واتصل ذلك فيهم حتي طردهم من فلسطين في عهد الامبراطور تيتوس يقيم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن (المقدمة ، ص ٢١٨) .

٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق١٣٧٠هـ ، جـ٢، ص٤٧٥.

٦ - M. Rodinson: Mohammed, New York 1971, P. 7.

٧ - راجع الفصل السابق .

٨ - تاريخ الرسل والملوك، طبعة ليدن ١٨٧٩، جـ١ ، ص ٧٤١.

٩ - الجاحظ : المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٤٣١هـ، ص ١٧٦.

١٠- الجاحظ : الحيوان ، جـ٤ ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٧

١١- Ignaz Goldziher: Renseignements de source Musulmane sur la dignite de Resch - Galuta, Revue des etudes Juives. v. vIII 1957, PP. 121- 125.

١٢- الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢هـ ، ص ٢٤.

١٣- Dubnov : op. cit., P. 330

١٤- Ibid, P. 330.

١٥- أورد المؤرخ اليهودى الروسى سيمون دبنوف ما جاء على لسان نانان البابلى فى كتاب History of the Jews, V. II, PP. 355 - 356.

١٦- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ١ ص ٧٨.

١٧- ترتون : أهل الذمة فى الإسلام، ترجمة حسن حبشى القاهرة ١٩٤٩، ص ١٠٢.

١٨- Dubnov : op. cit., P. 357

١٩- Ibid, P. 354.

٢٠- الجاحظ : الحيوان ، جـ٤ ، ص ٢٧.

٢١- Goitein : Jews and Arabs, P. 120.

٢٢- Dubnov : op. cit., P. 354

٢٣- Goitein : Jews and Arabs, P. 121.

٢٤- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ ، جـ٢ ، ص ٤٧٥.

٢٥- الشهر ستانى : الملل والنحل ، جـ٢ ، هامش كتاب ابن حزم الأندلسى: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١هـ ، ص ٥٤.

٢٦- الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٧٥ ، ٤٧٦.

٢٧- ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ، ص ١٠١.

٢٨- وجد ضمن وثائق الجنيزة خطاب أرسل من بغداد إلى مصر، أرسله رأس الجالوت دانيال بن حسيد اى يقر فيه تنصيب نيثانيال رئيسا لليهود القرائين فى مصر. وقام بجمع هذا الخطاب س . عساف من ثلاثة أماكن متفرقة . وجد الجزء الأول من الخطاب ضمن وثائق معهد اللاهوت اليهودى بنيويورك.

Jewish Theological Semminary of New York

والجزء الثانى من مكتبة جامعة كمبردج والجزء الثالث من مجموعة أنطونين

فى لينتجراد . Antonin Collection in Leningrad

(Mann, J: Texts and Studies, I, London 1931, PP. 230 - 235).
- G oitein : Studies in Islamic History. P. 287.

٢٩- المسعودى : التنبيه والإشراف ، بيروت ١٩٦٥، ص ١١٣.

٣٠- ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ١٠١ ، ١٠٢.

٣١- أنظر الفصل الثالث الخاص بالجهابذة .

٣٢- Dubnov : History of the Jews, P. 356.

نقلا عن التطيلى

٣٣- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء جـ٢ ، القاهرة ١٩١٥، ص ١٧٤.

٣٤- عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والاصطلاحات الصهيونية ، القاهرة ١٩٧٥، ص ١٤٩.

٣٥- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ١٣٦.

٣٦- تقع سورا بالقرب من الحلة بينما تقع بمباديثا بالقرب من الأنبار وهى من مدن العراق .

٣٧- Goitein: Jews and Arabs, P. 122.

٣٨- Goitein: Jews and Arabs, P. 122.

٣٩- Dubnov : History of the Jews, P. 358.

٤٠- Ibid, P. 358.

٤١- نقلا عن ناثان البابلى Dubnov : op. cit., P. 358.

٤٢- Dubnov : op. cit., P. 360.

٤٣- Dubnov : op. cit., P. 330.

٤٤- المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ١١٣.

٤٥- Mann: Texts and studies in Jewish History and Literature, New York 1972. P. 73.

٤٦- Mann : op. cit., P. 73.

(نشر خطاب منها Lewin وهو ضمن المجموعة الخاصة بإسرائيل ليفى كبير الربابنة اليهود بباريس)

٤٧- Mann : op. cit., P. 75.

٤٨- توفى ابن النديم فى أوائل القرن الرابع الهجرى وتوفى سعديا سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م (المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١١٣).

٤٩- ابن النديم : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ ، ص ٣٤ ، ٣٥.

٥٠- Goitein : Jews and Arabs, P. 118.

٥١- Ibid, P. 135.

٥٢- جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٨٠.

٥٣- أحمد سوسة : العرب واليهود فى التاريخ ، بغداد ١٩٧٢، ص ١٦٣.

٥٤ - على سامى النشار : الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، الإسكندرية ١٩٧٢، ص ٢١.

٥٥- على سامى النشار : الفكر اليهودى ، ص ١٧.

٥٦- عبد الوهاب المسيرى : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، القاهرة ١٩٧٥، ص ٢١٣.

٥٧- المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١١٣.

٥٨- القلقشندى: صبح الأعشى، القاهرة ١٩١٥ ، جـ١١ ، ص ٣٨٥.

٥٩- النشار : الفكر اليهودى ص ٢١.

٦٠- Mann, J : Texts and Studies in Jewish History and

Literature, v. II, New York 1972, PP. 83 - 86.

٦١- Mann : Jews in Egypt, I, P. 65.

٦٢- Ibid, P. 71.

٦٣- Ibid, P. 197.

٦٤- Goitein : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden 1967, P. 209.

٦٥- Mann : op. cit., P. 394.

٦٦- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص٦٣. (أصل هذه الوظيفة ما زال غير معروف) .

٦٧- Goitein : Jews and Arabs, P. 123.

٦٨- Mann : Jews in Egypt, V. I, PP. 255 - 256.

٦٩- Ibid, PP. 253 - 254.

٧٠- Ibid, P. 252.

٧١- ترتون : أهل الذمة ، ص ١٠٢.

٧٢- Mann : Jews in Egypt, I. P. 255.

٧٣- Mann : Texts and studies, P. 395.

٧٤- Mann : op. cit., 416.

٧٥- وردت سيرة زوطة فى طومار عبرى عثر عليه المؤرخ نيبهور وتحدث عنه في مقاله : The Scroll of Zuta
ونشر هذا المقال فى مجلة : JOR, V. VIII, P. 541.
(Ashtor : Saladin and the Jews, P. 313).

٧٦- Ashtor : op. cit., P. 313.

٧٧- Ashtor : op. cit., P. 314.

٧٨- جمع هذا الخطاب الذى كان مقسمًا إلى ثلاثة أجزاء س. عساف من ثلاثة

مناطق مختلفة. القسم الأول من الخطاب وجده ضمن مجموعة معهد اللاهوت اليهودى بنيويورك Jewish Theological Seminary of New York ، والقسم الثانى وجده ضمن مجموعة مكتبة جامعة كمبردج والقسم الثالث وجده ضمن مجموعة انطونين بلننجراد Antonin Collection of Leningrad

(انظر : Goitein Studies, P. 287.)

٧٩- Mann: Texts and Studie s, P. 395.

٨٠- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص ٣٨٥.

(أورد القلقشندى بعض نسخ توقيع رئاسة اليهود وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر - أنظر صبح الأعشى جـ١١ ص ٣٨٥ - ٣٩٢.

٨١- متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ص ٦٣.

٨٢- عن موسى بن ميمون : أنظر للمؤلف مقال : صلاح الدين واليهود ، بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٤٥ - ٤٨.

٨٣- Dubnov : op. cit., P. 819

٨٤- Ibid, P. 816.

٨٥- Goitein : Jews and Arabs. P. 123.

٨٦- يشير مان إلى أن موسى بن ميمون لم يشغل منصب الناجد بعد عزل زوطة عنه وأن هذا المنصب ظل شاغرا عدة سنين بعده ورغم ذلك لم يصبح ابن ميمون ناجدا برغم ما كان له من مكانة فى البلاط الخلافى، تلك المكانة التى تعطيه حق الرياسة على اليهود ولكن مان يقول أنه لم توجد ضمن وثائق الجنيزة ما يشير إلى تلقبه بالناجد وأن هذا المنصب ظل شاغراً حتي تولاه ابن موسى بن ميمون إبراهيم سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م.

Mann : Texts and Studies, PP. 417 - 418.

ويرد جواتيين بتأييد تعيين موسى بن ميمون ناجداً وجاءونا على مصر متهما مان باعتماده فقط فى دراسته على وثائق الجنيزة العبرية لعدم معرفته العربية : Goitein : Jews and Arabs, P. 123.

٨٧- Goitein : op. cit., P. 182.

٨٨- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء بيروت ١٩٦٥ ص ٥٨٣.

٨٩- هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى وهو من أطباء العرب المعروفين ، ولد فى دمشق سنة ٥٦٠هـ وعاش فى القاهرة واشتهر بحسن مداواته لأمراض العيون واستلفت نبوغه الجالس على كرسى الملك فالحقه بخدمة الدولة. توفى فى صرخد أحدى مدن جبال حوران سنة ٦٦٨هـ .

٩٠- عيون الأنباء ، ص ٥٨٣.

٩١- Mann : Texts and studies, PP. 418 - 419.

٩٢- Ibid, P. 428.

٩٣- Mann : op. cit., I, PP. 256 - 257.

٩٤- Ibid, P. 257.

٩٥- نشر هذا الخطاب فى :
The Jewish Quarterly Review, New Series, vol. 45 Philadelphia 1954, (Goitein : Jews and Anabs, New York 1955, PP. 82 - 83) .

٩٦- Goitein Studies in Islamic History, P. 290.

٩٧- Mann : Jews in Egypt, I, PP. 272 - 273.

٩٨- Ibid, P. 61.

٩٩- Mann, J : Texts and Studies in Jewish History and Literature, bv. II, New York 1972, P. 3.

١٠٠- ليست هنالك أية معلومات عن حياته الخاصة ولكنا نسمع عن ابنه الذى عاش فى القدس ومات بها سنة ٩٤٥ - ٩٤٦ واسمه أبو سليمان داود

Mann L op. cit., P. 18.

١٠١- Ibid, P. 22.

١٠٢- Ibid, P. 24.

١٠٣- Ibid, P. 30.

١٠٤- Ibid, PP. 33-34.

١٠٥- Mann: Texts, P. 33.

١٠٦- Ibid, PP. 38 - 39.

١٠٧- Ibid, P. 41.

١٠٨- Ibid, p. 42.

١٠٩- Ibid, PP. 47 - 49.

١١٠- Goitein : Jews and Arrabs, P. 123.

١١١- Goitein : Studies in Islamic History, P. 290.

ورد خطاب من أحد هؤلاء المقدمين الذى يعمل مقدما فى احدى مدن مصر الصغيرة أرسله إلى أبيه القاضى بالقاهرة يخبره فيه بأنه يريد ترك هذه الوظيفة وأنه يفضل أن يدرس بدلا من أن يضيع وقته فى إنشاد الصلوات للفلاحين والاهتمام بأمر اليهود الأجانب القادمين إلى بلدته انظر :

Goitein : Evidence on the Muslim Poll tax from non Muslim Sources, JESHO, 6, 1963, P. 278.

١١٢- Goitein : Jews, P. 123.

١١٣- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٧٤.

١١٤- نفس المصدر السابق ،ص ٤٤٧٤.

١١٥- Mann : Jews in Egypt, I, P. 271.

١١٦- Goitein : Studies in Islamic Histork, P. 347.

١١٧- Mann : op. cit, I, P. 257.

١١٨- Ibid, P. 259.

١١٩- Ibid, P. 264.

١٢٠- Morroe Berger : Economic and Social change, Cambridge History of Islam, c. t, Cambridge 1970, P. 725.

١٢١- هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن الليث اليهودى ، ولد سنة ٣١٨هـ وأسلم في ١٨ شعبان سنة ٣٥٦ وتولى الوزارة من سنة ٣٦٥هـ حتى سنة ٣٨٦ هـ حتى سنة ٣٨٠هـ.

(زامباور : معجم الإنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، تعريب زكى حسن وحسن محمود جـ القاهرة ١٩٥١، ص ١٤٥) .

١٢٢- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلامي السياسى جـ٣ القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥٢.

١٢٣- الخربوطلى : العزيز بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦٨، ص ٧٧، ٧٨.

١٢٤- محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٨٧.

جورجى زيدان : التمدن الإسلامى : جـ٤ ، ص ١٣٨.

١٢٥- سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٩.

١٢٦- ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٦١.

١٢٧-ابن ميسر تاريخ مصر،طبعة المعهدالعلمى الفرنسى،القاهرة ١٩١٩ ص١٥.

١٢٨- سرور : الدولة الفاطمية ص ٩٠.

١٢٩- نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

١٣٠- زامباور : معجم الإنساب جـ١ ص ١٤٨.

١٣١- Coitein : Studies, P. 209.

مصادر الفصل الثانى

* **ابن أبي أصيبعة** : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥.

* **ابن خلدون** : المقدمة (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، القاهرة ١٣٢٠هـ.

* **ابن منجب الصيرفي** : الإشارة إلى من نال الوزارة ، طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ، القاهرة ١٩٢٤.

* **أبن ميسر** : تاريخ مصر – طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩١٩.

* **ابن النديم** : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ.

* **أحمد سوسة** : العرب واليهود في التاريخ ، بغداد ١٩٧٢..

* **آدم متز** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٧، جـ١.

* **ترتون** : أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٤٩.

* **الجاحظ** : الحيوان ، جـ٤ ، القاهرة ١٩٦٦.

* **الجاحظ** : المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٩٣١.

* **جورجى زيدان** : تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ٣ ، القاهرة ١٩٥٨.

* **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣ ، القاهرة ١٩٦٥.

* **حسن ظاظا** : الفكر الدينى الإسرائيلى (بدون تاريخ).

* **زامباور** : معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى حسن وحسن محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ١.
* **الشهر ستانى** : الملل والنحل ، جـ٢ هامش كتاب ابن حزم الأندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١هـ.
* **الطبرى** : تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩، جـ١.
* **عبد الوهاب المسيرى** : موسوعة المفاهيم والاصطلاحات الصهيونية ، القاهرة ١٩٧٥.
* **عطية القوصى** : صلاح الدين واليهود ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ٢٤ لسنة ١٩٧٧.
* **علي سامي المنشار** : الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الإسلامية ، الإسكندرية ١٩٧٢.
* **القلقشندى** : صبح الأعشي في صناعة الأنشا ، جـ٣ ، القاهرة ١٩١٥.
* **محمد جمال الدين سرور** : الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٦.
* **المسعودى** : التنبيه والإشراف ، بيروت ١٩٦٥.
* **المقريزى** : المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، جـ٢.

- **Ashtor** , S : Saladin and the Jews, Hebrew Union College Annual, v. xxvll, Jerusalem, 1956.
- Cambridge History of Islam, v. t, Cambridge 1970.
- **Dubnov, S** : History of Jews V. II, London 1968.
- **Coitein S** : Jews and Arabs, their contact through he Ages, New York 1955.

- **Coitein, S** : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden 1967.
- **Goldziher, T** : Renseignements de source Musulmane sur la Dignite de Resch-Galuta, Revue des e tudes Juives, V. VIII, Paris 1957.
- **Mann, J** : The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, v. I, Oxford 1969.
- **Mann, J** : Texts and studies in Jewish History and Literatuer, New York 1972.
- **Rodinson, M** : Mohammed, New York 1971.



الفصل الثالث

دور اليهود فى الحياة

الاقتصادية فى الدولة الإسلامية

ذكر المؤرخ ابن خرداذبه[1] ، رئيس ديوان البريد والذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، أن التجار اليهود لعبوا دوراً هاماً فى تجارة الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى الأولى ، وأنهم كانوا يقومون بالترحال من غرب أوربا إلى بلاد الشرق ويعبرون البحر الأحمر إلى الهند ، وأطلق ابن خرداذبه على هؤلاء التجار إسم الريدانية أو الرازانية[2] . وكان نشاط التجار اليهود الرازانية قد امتد فى الشرق قبل قيام الدولة الإسلامية بمائتين وخمسين عاما واستمر حتى منتصف القرن الرابع الهجرى[4] .

وقد تعلم اليهود التجارة من البابليين - وهى أمة تجارية قديمة - حين تفرقوا بعد تحطيم أول معابدهم سنة ٥٨٧ ق.م. ونزحوا إلى بابل وعاشوا فيما عرف فى تاريخهم بفترة «السبى البابلى». ووجد اليهود أنفسهم فى العصر الهيلينستى والإسلامى أصحاب خبرة تجارية كبرى وخاصة اليهود الرازانية الذين احترفوا استيراد بضائع الشرق الغالية الثمن عبر البحر الأحمر وتصديرها إلى بلاد أوربا.

ووجد أولئك التجار، منذ أن قامت الدولة الإسلامية، الحرية الكافية فى تصريف تجارتهم بسبب الحرية الكاملة التى أعطاها حكام المسلمين لأهل الذمة فى الكسب والعمل وبسبب عدم وجود أية صعوبة فى التنقل فى العالم الإسلامى بسبب وحدة هذا العالم .

ولقد استمر نشاط تجار اليهود الرازانية عبر الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . وتوقف هذا النشاط فى ذلك الوقت بسبب ظهور التجار الكارمية فى المياه الإسلامية وتوليهم أمر التجارة بين الشرق والغرب وكذلك بسبب قيام الجمهوريات الإيطالية التجارية فى مياه البحر المتوسط بهذا النشاط . أما عن التجار الكارمية فهم فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من السلع الأخرى وكان مركز

نشاطهم الأول فى المحيط الهندى . ولقد ثبت بداية نشاط هذه الجماعة منذ عهد دولة الفاطميين وازدهرت تجارتهم عبر البحر الأحمر فى العهد الأيوبى والمملوكى ازدهارا شديدا . ويشير بعض الكتاب إلى أن طائفة التجار الكارمية فى العهدين الأيوبى والمملوكى لم تكن تضم سوى المسلمين ، وأنها كانت تشترط الإسلام أو الدخول فيه لمن يريد العمل فى الكارم(٤) .

أما عن نشاط المدن الايطالية التجارية فى ذلك الوقت ، فلقد أدت هذه اليقظة إلى نمو هذه المدن وتطورها فى طريق الحكم الذاتى وقيام القومونات أو الجمهوريات فى هذه المدن(٥) . وأدت هذه اليقظة إلى أن يستعيد البحر المتوسط المكانة الاقتصادية التجارية السابقة التى كانت له زمن الامبراطورية الرومانية وأن يتحول مركز التجارة العالمية عن المحيط الهندى إلى هذا البحر .

هذا ولقد تطلعت هذه المدن الايطالية التجارية فى عصر بدء قيام القومونات بها لعقد صلات تجارية طيبة مع الدولة الفاطمية ، أكبر قوة سياسية واقتصادية فى حوض البحر المتوسط آنذاك . ودخلت ، بناء على ذلك ، العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى عهد جديد وحلت الجهود الدولية فى التجارة محل الجهود الفردية بعد أن دخلت المدن الايطالية التجارية مع الحكومة الفاطمية فى علاقات تجارية دولية تنظمها المعاهدات المعقودة بين الخلفاء الفاطميين وحكام هذه القومونات .

وشهد عصر اليقظة الاقتصادى لأهالى مدن أوربا التجارية الصراع بين التجار المسيحيين من أهالى هذه المدن (تجار الفرنج) والتجار اليهود الذين كانوا حتى ذلك الوقت يسيطرون على تجارة الشرق مع أوربا ، وقد انتهى هذا الصراع بانتصار تجار الفرنج وتقلص نفوذ التجار اليهود تدريجيا حتى توقف نشاطهم تماما فى هذه التجارة العالمية مع مطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)(٦) ، ونتيجة لهذه التطورات استقر معظم تجار اليهود الرازانية فى بلاد

الشرق الإسلامى وقصروا نشاطهم على التجارة الداخلية فى هذه البلاد. وشارك هؤلاء التجار اليهود مع قرنائهم الذين عملوا فى الصناعات الخفيفة كالصباغة والحياكة بدور فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية ، ولقد تحدث الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ، الذى زار العالم الإسلامى فى منتصف القرن السادس الهجرى ، عن الحرف التى كان يحترفها اليهود فى العالم الإسلامى وقت زيارته لهذه البلاد(٧) .

وبرغم ما ذكر عن مهانة الحرف التى كان يحترفها اليهود فى الدولة الإسلامية فإن عملهم فى الصيرفة وفى الجهبذة كان له دور هام لا يمكن اغفاله عند دراسة الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية .

وعن الصيرفة والجهبذة واشتغال اليهود بهما نقول أنه حدث فى نهاية القرن الثالث الهجرى تغير فى التعامل المالى فى الدولة العباسية فى ولاياتها الشرقية والغربية ، وذلك بأن حل الدينار الذهب محل الدرهم الفضة فى التعامل. ولقد جرى التعامل فى الضرائب التى جمعت فى القرنين الثانى والثالث الهجريين فى ولايات الدولة الغربية بالذهب بينما جرى التعامل فى الجهات الشرقية بالفضة، ولكن مع مطلع القرن الرابع الهجرى أصبح التعامل المالى بالدينار الذهب فى كل الدولة. وتطلب هذا التغير فى المعاملة وجود من يقومون بأعمال تحويل العملة من فضة إلى ذهب وتقدير قيمتها فضلا عن مراقبة سلامة النقد لصالح الدولة ، ومن ثم وجدت فى الدولة العباسية وظيفة الصيرفى الذى كانت تتم هذه العمليات على يده ، كذلك وجدت وظيفة الجهبذ التى تفرعت عن وظيفة الصيرفى(٨) . ونحن لا نستطيع الحديث عن الجهبذة التى ازدهرت مكانة أصحابها فى المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ما لم نتعرف على وظيفة الصيرفى التى هى أصل الجهبذة.

ولقد عرف المسلمون الصيارفة منذ قيام الدولة الإسلامية ، وانتشر هؤلاء

الصيارفة فى مدنها التجارية الهامة ، وقد وجد الصيارفة فى الكوفة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، واشتغلوا بتحويل الدراهم الفضية إلى دنانير ذهب وبحل مشكلة تنوع جودة النقود من العملة الواحدة واختلاف أوزانها بصرف هذه الأنواع بعضها ببعض حسب حاجات أصحابها[٩]. ولم يكن هؤلاء الصيارفة سوى تجارا ذلك لأنه لم تكن توجد بين الصيرفة والتجارة تلك الحدود الفاصلة التي نعرفها اليوم لا في العالم الإسلامى ولا فى العالم المسيحى حتي نهاية العصور الوسطى[١٠] .

وكانت دار الضرب مفتوحة لكل الناس ، ويحق لأى فرد أن يأتى إليها بالذهب والفضة لتضرب له وليغيرها حسبما يريد[١١] ، وكان التجار والصرافون ، فى القرن الرابع الهجرى ، يتوسطون بين دار الضرب فيأخذون من الناس العملة المختلفة والمعادن الثمينة ويعطونهم ما يساويها فى القيمة الرسمية من الدنانير الذهب[١٢] . وكانوا مقابل ذلك يحصلون على أجر لهم فضلا عن استفادتهم من الفرق بين القيمتين . وتأخذ الحكومة أجرا بسيطا على ضرب النقود ، يسمى هذا الأجر ثمن الحطب وأجرالضراب . وقد جعله الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان درهما على كل مائة درهم[١٤] .

وكانت الصيرفة من عمل أهل الذمة ، وإن كان هنالك من عمل بها من المجوس ومن المسلمين . وذكر ان سبب احتكار أهل الذمة العمل فى الصيرفة والصياغة هو عدم رغبة المسلمين فى أن يكون أولادهم خدما لأهل الذمة العاملين بهذه المهن[١٥] . فانفردوا لذلك بهما ، وبخاصة اليهود بعد أن كانوا فى الحرف المتهنة كالصباغة والدباغة والصباره والميارة (نقل البضائع) والعمل حمالين وكيالين وخياطين[١٦] « ولما اشتغل اليهود بالصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة فادخلوا أنفسهم فى الصرف وترددوا على دار الصرف ، وقدمهم فى ذلك الولاه والعمال لقبض المجابى والأموال فى سائر الأشغال »[١٧] .

ولقد شارك النصارى اليهود فى أعمال الصرافة ، بل كان أغلب الصرافين فى الدولة الإسلامية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى منهم[١٨] . أما من المسلمين فكان الماذرائيون[١٩] ، أشهر من عمل بالصيرفة فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وكذلك آل البريدى[٢٠] .

وكانت للصيارفة مكانة ممتازة فى الدولة الإسلامية ، بسبب هذا الدور المالى الهام الذى قاموا به ويسروا بسببه على الناس تعاملاتهم كما أصبحت لهم ثروات هائلة من وراء عملهم هذا فضلا عن مكاسبهم من التجارة ، وفى وثيقة من وثائق الجنيزة نقرأ عن صيرفى بالفسطاط يدعى إبراهيم كان يعمل قاضيا إلى جانب عمله بالصيرفة وكانت له ثروة طائلة أيام دولة الفاطميين[٢١]، وكذلك كان أبو نصر هارون بن سهل التسترى[٢٢] يشتغل بالصيرفة إلى جانب عمله بالتجارة بين مصر والعراق ، ولقد طبق صيته وأخيه إبراهيم الآفاق لاتساع تجارتهما وعظم ثروتهما[٢٣] .

واتخذ الصيارفة محله خاصة لهم فى بغداد فى سوق الكرخ[٢٤] . عرفت بدرب عون[٢٥] . وكانت الصيارفة تتعامل داخل هذه المحلة فى أموال كثيرة ، وشاهد على ذلك ما ذكره الوزير يحيى البرمكى للخليفة هارون الرشيد حين استكثر ارسال والى خراسان له عشرة ملايين درهم خراج، فرد عليه بقوله : «لوقصدت لدرب من دروب الصيارفة بالكرخ لو جدت فيه أضعاف هذه »[٢٦]. كذلك كان بمدينة البصرة عدد كبير من الصيارفة منتشرين فى كل أسواقها . ولقد أورد ناصرى خسرو قوله بأن البصرة كانت عامرة بصيارفتها . وذكر بأن المعاملات التجارية فى أسواقها كانت تجرى كما يلى « كل من معه مال يعطه للصراف ويأخذ منه صكا ثم يشترى كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف فلا يستخدم المشترى شيئا غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة»[٢٧] . وكان صيارفه البصرة يجتمعون مع تجار الجملة فى سوق خاصة من الساعة الثالثة

بعد الظهر حتى المساء لتصفية الحسابات التى بينهم[٢٨] . وذكر ناصرى خسرو أنه كان هنالك سوق للصرافين بمدينة أصفهان ، وأنه يجتمع فى هذه السوق نحو من مائتى صراف[٢٩] . وتذكر المصادر اليهودية أن اليهود الذين كان لهم الشأن الأول فى صناعة البسط بمدينة تستر لم يكونوا صناعًا بل كانوا صيارفة[٣٠] ويروى المقريزى[٣١] ، أنه كان للصيارفة فى مصر رحبه تعرف برحبه الصيارفة أو سوق الصيارفة كانت بجوار المسجد الجامع فى مصر بالقصبة[٣٢] ، وكان اليهود بين هؤلاء الصيارفة ، ولقد عزر المحتسب فى سنة ٣٦٢هـ طائفة منهم قامت بالشغب .

وأدى ازدهار التجارة العالمية فى العصر العباسى الثانى إلى توسع أعمال الصيارفة فضلا عن قيامهم بدور الوساطة بين الناس ودور الضرب فقد قاموا بعمل البنوك الحالية وهو قبول ودائع الناس لديهم والقيام بتقديم سلف وقروض للتجار منهم مقابل فوائد محدودة . وقد أودع أبو على الخازن خمسين ألف دينار عند صراف[٣٤] ، كذلك أودع الوزير على بن عيسى ١٧ ألف دينار عند صراف آخر[٣٥] .

ولقد استمرت وظيفة الصيرفى قائمة فى الدولة الإسلامية طوال العصور الوسطى ولم ينته عمل الصيرفى بها طوال هذه المدة . ولكن تفرعت عن عمل الصرافة وظيفة الجهبذة التى نحن بصدد الحديث عن أصحابها وظهر الجهابذة فى الدولة العباسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين جنبا إلى جنب مع الصيارفة ، واستمر وجود الجهابذة طوال هذين القرنين وانتهى دورهم فيها عند نهايتهما ، وبذلك تكون وظيفة الجهبذة كما سنرى وظيفة مشتقة عن الصيرفة ظهرت فى القرنين الثالث والرابع واستمرت موجودة معها طوال هذين القرنين وبعد ذلك احتتجبت مع استمرار وجود الصيارفة فى الدولة الإسلامية بعد هذا القرن .

ولقد وصلنا إلى هذه الحقيقة بعد معاناة شديدة فى تفسير طبيعة الدور بين هاتين الوظيفتين الماليتين ، ذلك لأن عملية الفصل بين وظيفة الصيرفى ووظيفة الجهبذ عملية شاقة لأن معظم الكتاب ، وبخاصة الأقدمين ، والذين تناولوا الحديث عن المسائل المالية فى العهد العباسى ، خلطوا بين الصراف والجهبذ لتقارب نوع العمل الوظيفى بينهما ولوجود الوظيفتين معا فى الدولة العباسية فى وقت واحد ، بل أن بعضهم كان يطلق التسميتين على مسمى واحد.

ولبيان الفرق بين الوظيفتين ، علينا أولا أن نفسر لفظ ، جهبذ ونتعرض للتفسيرات المختلفة لهذه الكلمة الفارسية الأصل .

والجهبذ بالفارسية هو « الناقد الكبير»[٣٦] والكلمة فى الأصل «كهبذ»[٣٧] . ولقد عرف أبو سعيد السيرافى ، العالم النحوى المعروف[٣٨] ، الجهبذ بأنه الناقد العارف بجيد المال ورديئه[٣٩] . وذكر القلقشندى بأن الجهبذ هو الصيرفى[٤٠] . وفى « تاج العروس» ورد أن الجهبذ هو الناقد الخبير بغوامض الأمور العارف بطرق النقد[٤١] ، وفى القاموس المحيط عرف بالناقد الخبير[٤٢] ، وفى محيط المحيط ورد بأن معنى الجهبذ الناقد العارف بتمييز الجيد من الردىء وهو معرب كهبذ بالفارسية والجمع جهابذة[٤٣] . وعرفه كلٌ من « آدم ميتز»[٤٤] و « دوزى»[٤٥] على أنه صراف ، بينما عرفه « فيشيل » Fischel بأنه صاحب مصرف ، وفى مكان آخر عرفه بأنه تاجر ، وذكر أن كلمة جهبذ فى القرن الرابع الهجرى كانت تساوى كلمة تاجر[٤٧] . وعرف اليهود هذا المنصب وأطلقوا على صاحبه بالعبرية اسم «جيزبار» Gizbar أى الأمين وهى تقابل جهبذ بالفارسية[٤٨] .

ومن خلال دراستنا لتحديد تاريخ ظهور هذه الوظيفة المالية ، وجدنا أن الجهابذة كانوا فى الأصل تجارا ، مثل الصيارفة ، وأنهم عملوا أول الأمر بالصيرفة ثم ارتقى الحال بهم ، دون سائر الصيارفة ، بأن أصبحوا كتاب خراج فى أقاليم الدولة المختلفة، ثم تطور الامر بهم وزاد رقى حالهم فأصبحوا أصحاب

بيوت مالية كبيرة (بنوك مصرفية) تعمل لحساب الخلفاء والوزراء . فكان الوزراء يودعون عندهم أموالهم وكانوا بدورهم يشرفون على الحسابات الخاصة لهؤلاء الوزراء كذلك كانوا يقدمون للخلفاء الأموال التى يحتاجونها لاقالة دولة الخلافة من عثراتها المالية ، ويقومون بدور الوسطاء بين الخلفاء وبين كبار التجار الذين كان الخلفاء يقترضون المال منهم .

ويروى التنوخى ما يؤيد ان الجهابذة كانوا فى الأصل تجاراً ، إذ يذكر أنه كان لسليمان بن وهب (وزير الخليفة المعتمد) وابنه عبيد الله جهبذ خاص يدعى «ليث» وكانا يودعان نقودهما عنده ، ولما عزل سليمان من الوزارة[٤٩] وقبض على ليث ليصادر ما عنده من أموال لبيت وهب اكتشفوا فى داره ثمانين ألف دينار ذكر أنه حصلها من التجارة[٥٠] .

ويرجع البعض ظهور الجهبذ ككاتب خراج إلى زمن الساسانيين ويذكر أن هذا المنصب أحدث زمن الملك جمشيد بن أونجهان[٥١] وأن « آل أبى دلف » كانوا قبل الإسلام من جهابذة الحيرة »[٥٢] ، وعرف المسلمون الجهبذ كاتب خراج[٥٣] فى أوائل عصر دولة الأمويين فى زمن معاوية بن أبى سفيان[٥٤] .

ولما جاء العباسيون وسعوا عمل الجهبذ فى المقاطعات . فكان الجهابذة يعاونون الولاة فى جباية الضرائب وتحصيل الأموال . ويروى الجهشيارى[٥٥] أنه كان لعامل هارون الرشيد على مصر ، « عمران بن مهران » جهبذ يقوم بمساعدة العامل فى الشئون المالية ، كما يروى التنوخى[٥٦] بأنه كان للرشيد جهبذه الخاص وكان فى نفس الوقت صاحب بيت ماله .

وقد كان من واجبات جهبذ الأقاليم فى هذه الدولة استلام الوارد من الخراج وغيره وعمل حساب شهرى وسنوى به يرسله إلى الديوان العام وينصرف على عمل الجهبذ آنذاك تعريف ابن مماتى من أنه « ... من المستخدمين من حملة الأقلام ، وهو كاتب برسم استخراج المال وكتب الوصولات به ، وعليه

عمل المخازيم والرزنمجات والختمات وتواليها ويطالب بما يقبضه ويخرج ما يرفعه من الحساب اللازم له من الأموال الديوانية »[٥٧] .

وكان الحساب الشهرى بالدخل الذى يعمله جهبذ الأقاليم يعرف بالختمة وهى كتاب يرفعه الجهبذ كل شهر بجملة الايرادات والمصروفات ، وسميت ختمه لأنها كانت تجرى فى ختام شهر[٥٨] . أما الحساب السنوى فكانت ختمته تعرف بالختمة الجامعة. وكان الجهبذ يكتب ايصالا بالدفع والمخالصة (براءة) لكل من يدفع ما عليه من مال للدولة[٥٩] . ويتسلم الجهبذ أجرًا عن خدماته للدولة من الضرائب التى يحصلها عرف باسم (حق الجهبذة) أو « مال الجهبذة» ويحدد هذا الأجر عند تعيين الجهبذ وتسلمه مهام منصبه[٦٠] . ويروى الجهشيارى أن جهبذا فى عهد أبى جعفر المنصور جمع لنفسه ثلاثين ألف درهم من قيامه بجهبذة بعض نواحى الأهواز[٦١] .

وكان أغلب الجهابذة فى أقاليم الدولة الشرقية يهودا ، وكذلك الحال فى الشام[٦٢] . ففى عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م أمر الخليفة المقتدر ألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا فى الطب والجهبذة[٦٣] . وكان النصارى فى مصر يستخدمون كثيرا فى أعمال الجهبذة كما استدللنا على ذلك من أوراق البردى حيث ورد أن أحدهم كان يطبع البراءات بختمه الذى عليه الصليب[٦٤] . وكذلك كان اليهود فى مصر يعملون فى الجهبذة ، وهناك خطاب فى الجنيزة ورد من بلدة « صهرجت» فى شمال الدلتا يشكو فيه صاحبه إلى قريب له بالفسطاط عن عدم وصول أى أخبار « عن أخت الجهبذ الكبير الذى يخدم الحكومة ويحترم كلمته كل جيرانه»[٦٥] .

وكانت مصر قد عرفت الجهبذة منذ عصر الفاطميين ، عرفتهم تجارا وليسوا موظفين حكوميين[٦٦]. ولم يظهر الجهبذ كموظف حكومى فى مصر إلا فى أواخر عهد الدولة الفاطمية وفى عهد الأيوبيين[٦٧]. ولقد ذكرت المصادر التاريخية

أن يعقوبا بن كلس وآل التسترى عملوا جهابذة قبل أن يتولوا مناصب الوزارة فى الدولة الفاطمية [٦٨]، وذكر المقريزى[٦٩] . من ضمن ما ذكر من أحداث عام ٥٤٧هـ فى عهد وزارة اليازورى[٧٠] ، أنه أصاب البلاد آنذاك ضائقة اقتصادية وأن الحال ضاق بعمال النواحى والجهات التابعة لديوان الخراج ، ولم يستطيعوا أن يقدموا للديوان ما يجب عليهم من الخراج ومطالبة الفلاحين بالقيام به . فقام التجار بابتياع غلات الفلاحين قبل حصادها بسعر فيه ربح لهم وحضروا إلى الديوان وقدموا للجهبذ الأموال التى على الفلاحين وأثبتوا ذلك فى روزنامج الجهبذ (سجله اليومى) وشرطوا أن يحملوا الغلال إلى مخازنهم عند حصادها ، لكن الوزير اليازورى منع ذلك وكتب إلى عمال النواحى باستعراض روزنامجات الجهابذة وتحرير ما قام به التجار عن المعاملين ومبلغ الغلة الذى وقع الابتياع عليه . وأمرهم أن يعيدوا للتجار ما دفعوه وأن يربحهم في كل دينار $\frac{١}{٨}$ دينار تطيبيا لخاطرهم .

ولقد كانت الأموال التى يحصلها جهابذة الأقاليم من أقاليمهم فى شرقى الدولة العباسية وغربيها تصب فى ديوان أُنْشىء فى بغداد خصيصا لاستقبال الأموال التى يرسلونها سنة ٣١٦هـ عرف بديوان الجهبذة ، وكان أول من تولى رئاسة هذا الديوان جهبذ مسيحى يدعى إبراهيم بن أيوب[٧١] . وتوالى تولى الجهابذة المسيحيين لهذا الديوان بعد ذلك فوليه منهم : إبراهيم بن يوحنا ، زكريا ابن يوحنا ، سهل بن ناظر ، إسرائيل ، بن صالح ، صالح بن نظير ، نقولا بن اندرونا ، ومركور بن شنودة[٧٢] ، وتولى أمره من المسلمين ابراهيم بن أحمد بن أدريس وذلك أيام وزارة ابن الفرات الثالثة ٣١١- ٣١٢هـ)[٧٣]. أما من اليهود فتولى أمره هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس الجهبذان اليهوديان الشهيران[٧٤] .

ولقد أورد قد امه بن جعفر عن هذا الديوان ما نصه[٧٥]:

« ... ويجرى فى هذا الديوان من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية ما يجرى مجرى ذلك من توابع اصول الأموال ثم ما يزيده شرار الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب اعنات من عليه مال من أهل الخراج ومن يجرى مجراهم فى النقود والصروف وما يرتفقون به من التقديم والتأخير عمن يتعذر عليه الأداء وقت المطالبة فان بعضهم لما وجد ذلك فى بعض النواحى زاد فى ضمان الجهبذة بتلك الناحية على من هو ضامن لها ووقع التزايد فى هذه الوجوه بالظلم والعدوان على الرعية وسائر من يقام لهم الجارى وتطلق لهم النفقة حتى توافى مال الجهبذة إلى جملة وافرة أصل أكثرها عدوان» .

ولقد أصبحت وظيفة الجهبذ فى القرن الرابع الهجرى فى الدولة العباسية من الوظائف الهامة التى حرص الخلفاء العباسيون على اختيار الأكفاء لها شأنهم فى ذلك شأن أرباب وظائف الدولة الكبرى، ويظهر ذلك من العهد الذى كتبه الخليفة العباسى المطيع[٧٦] إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى والذى يوصيه فيه باختيار ذوى الغناء والكفاية وأهل النصيحة والأمانة لموظفى الإدارة المالية فى الدولة ومنهم الجهبذ وبأن يختار « للخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالى ذوى الغناء والكفاية وأهل النصيحة والأمانة ومن يوثق بدينه ويسكن إلى أمانته»[٧٨] .

وجاءت المرحلة الهامة فى تاريخ الجهابذة ، وهى مرحلة تحولهم من كتاب خراج بالأقاليم إلى أصحاب بيوت مالية تقوم بالإيداع والتسليف نظير الفائدة ووصل الجهابذة إلى هذه الحال بسبب ثقة كبار رجال الدولة والوزراء فيهم وائتمانهم على أموالهم، وكانت خير خدمة يؤديها الجهبذ إلى هؤلاء الرجال حفظ أموالهم التى يودعونها عندهم نظير الفائدة ، ذلك بسبب عدم ثقة الوزراء وكبار رجال الدولة بغير الجهابذة فى أناس يودعون اموالهم عندهم فى وقت تهددت فيه أموالهم بالمصادرة بين الحين والآخر. وكانت قد استجدت فى الدولة العباسية

وشاعت عادة مصادرة الوزراء وكتابهم وخاصة فى عهد خلافة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠)[٧٩] . فازدادت لذلك أهمية الجهابذة لازدياد أهمية الايداع عندهم أمانا من المصادرة وبديلا عن تحويل الأموال إلى ذهب وجواهر ودفنها فى التراب والآبار وتعرضها للأخطار والضياع[٨٠] . وكانت الأموال التى تودع عند الجهابذة انذاك مصونة نسبيا برغم تفتيش الجهابذة بعد صرف المتعاملين معهم من وظائفهم ذلك لأن الوزراء وأصحاب هذه الأموال وكبار رجال الدولة كانوا يودعون أموالهم لدى الجهابذة دون تسجيلها فى سجلاتهم أو كانوا يغيرون فى أسمائهم ويكنون أنفسهم بألقاب غير القابهم[٨١] .

وترجع ثقة الحكام والأمراء والوزراء فى الجهابذة وائتمانهم فى إيداع أموالهم لديهم إلى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور ، فلقد روى الجهشيارى قصة مفادها أن خالداً البرمكى[٨٢] أتهم بإيداع مال عند جهبذ نصرانى وذلك حين صرف المنصور خالدا عن ديوان فارس وقلده لأبى أيوب الموريانى سلمان بن مخلد . يقول الجهشيارى[٨٣] «وألزم المنصور خالدا ثلاثة آلاف درهم، ولم يكن عنده إلا سبعمائة ألف درهم ، ولما تحقق من ذلك صفح له عن المال الباقى فشق ذلك على أبى أيوب وأحضر بعض الجهابذة ودفع إليه مالا وأمره أن يعترف أنه لخالد ودس إلى أبى جعفر من سعى بالمال فأحضر الجهبذ فسأل عن المال فاعترف به فأحضر خالدا فسأله عن ذلك فحلف بالله أنه لم يجمع مالا قط ولا ذخيرة ولا يعرف هذا الجهبذ ودعا إلى كشف المال . فتركه أبو جعفر فى حضرته وأحضر النصرانى (الجهبذ) قال له : أتعرف خالدا أن رأيته قال : نعم يا أمير المؤمنين أعرفه إن رأيته فالتفت إلى خالد وقال : قد أظهر الله براءتك وهذا مال أصبناه بسببك ، ثم قال النصرانى : هذا الجالس خالد فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين وأخبره بالخبر فكان لا يقبل من أبى أيوب بعد ذلك شيئا عن خالد » .

وكان لأحد عمال الرشيد جهبذ خاص يودع عنه أمواله[٨٤] . وكان لسليمان بن وهب (وزير المعتمد) ولابنه عبيد الله جهبذ خاص يدعى «ليث» كانا يودعان أموالهما عنده ويأخذان عليه صكوكا بذلك . وظهر أمر هذه الأموال حين صرف سليمان من الوزارة وقبض على الجهبذ ليث ليؤخذ ما عنده من ودائع سليمان[٨٥]

وكانت للوزير ابن الفرات[٨٦] أثناء وزارته الأولى (٢٩٦ - ٢٩٩هـ) معاملات خاصة مع الجهبذين اليهوديين الشهيرين هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس ، وكان ابن الفرات يودع عندهما كل أموال المصادرات والرشاوى . ويذكر كل من التنوخي وأبو هلال الصابىء[٨٧] أن ابن الفرات نصب في سنة ٢٩٦هـ هذين الجهبذين وأسند إليهما حفظ كل - الأموال المصادرة من أنصار ابن المعتز دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة ، وأنه أفرد ابن فرجون كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما ، فكان يحاسبهما ولا يرفع إلى الدواوين شيئا من حسابهما ، وأن ابن الفرات حين عزل من وزارته الأولى وحل مكانه فيها على بن عيسى قبض عليه وحوسب على يد مؤنس الخادم صاحب بيت المال فذكر أن له عند الجهبذين اليهوديين مليون وأربعمائه وسبعين ألف وخمسمائة وستة وأربعين درهما (١,٤٧٠,٥٤٦ درهما) . ولقد حصل مؤنس الخادم من الجهبذين هذا المبلغ الضخم ورده إلى بيت مال الخاصة . ولم يكن هذا المبلغ الذى ذكره ابن الفرات هو كل ما يودعه عند الجهبذين فلقد كان الكاتبان يوقنان أن المبلغ الأصلى الذى لديهما لا يقل عن مليون دينار . ولم ترض هذه المحاسبة الوزير على بن عيسى (٣٠٠ - ٣٠٤هـ) فأمر باحضار الجهبذين وهددهما وحبسهما وذلك لاستخراج بقية المبلغ المودع لديهما فاستطاع بذلك أن يحصل منهما على عشرة آلاف دينار ومائة ألف درهم أخرى .

ورغم ذلك لم يقتنع على بن عيسى فسلم الجهبذين إلى حمد بن محمد والى

ديوان المغرب وأمره بأن يشتد فى حسابهما ونجح بالفعل فى الحصول منهما على مائتى ألف درهم أخرى[٨٨] .

وبعد أن عزل ابن الفرات عن الوزارة المرة الثانية (٣٠٦هـ) وتولى بعده الوزارة حامد بن العباس وقام لمحاسبته ، اعترف ابن الفرات بأن له قبل يوسف ابن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين سبعمائة ألف دينار فأحضرهما حامد فاقرا بالمال فأخذه منهما [٨٩] .

كذلك أودع الوزير حامد بن العباس عندما تولى الوزارة (٣٠٦هـ) مبلغ مائة ألف دينار عند جهبذه إبراهيم بن يوحنا[٩٠] . يقول فى ذلك مسكويه[٩١] : «وكان ابن الفرات قد أمر بمصادرة أمواله وقبض على جهبذه إبراهيم وسأله عن ودائع حامد طرحة فاقر أن لحامد عنده هذا المبلغ عينا ثم حلف على أنه ليس عنده لحامد ولا لأحد من أسبابه وديعة غيرها فأمنه ابن الفرات على نفسه »[٩٢] وأودع حامد بن العباس أيضا مبلغا قدره ستة آلاف دينار عند الجهبذ إبراهيم ابن أحمد أدريس[٩٣] .

كذلك أورد أبو هلال الصابئ أنه كان لعلى بن عيسى[٩٤] سبعة عشر ألف دينار عند جهبذ يدعى عيسى الناقد، وذلك حين ذكر حديثا دار بين ابن الفرات وعلى بن عيسى يطلب منه ذكر ما عنده من أموال فرد بأنه ليس عنده أكثر من ثلاثة آلاف دينار فقال له ابن الفرات : تقول هذا وقد وجد لك عند الجهبذ عيسى الناقد سبعة عشر ألف دينار فرد عليه على بن عيسى بقوله: هذا رجل قلدته مال ضياع البر والجهبذه وعنده أموال حاصلة فاما أن يكون المال منها أو تكون قد أخذت ماله ونسبته إلىّ وأكرهته على أن كتب خطه بذلك[٩٥]. وهنالك نص أورده أبوهلال الصابى[٩٦] مفاده أن الوزير ابن الفرات حين تصالح مع على بن عيسى، بعد عودته للوزارة فى المرة الثانية، أخذ محبرته وأمر جهبذه هارون بن عمران أن يدفع من حسابه ألفى دينار إلى على بن عيسى ويكتب له سفتاجه بذلك.

وكان لابن الفرات « بعد عزله للمرة الثالثة من الوزارة سنة ٣١٢هـ » مبلغ ١٦٠ ألف دينار لدى جهبذيه هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس يقول مكسويه[٩٧] . « حين عزل ابن الفرات سنة ٣١٢هـ عن الوزارة الثالثة وحبس في دار الخلافة على يد مؤنس الخادم وتقلد بعده أبو القاسم الخاقاني الوزارة صودر منه مائة وستون ألف دينار اعترف بوجودها لدى جهبذيه يوسف وهارون ، فقام الخاقاني بتسلم المبلغ منهما ووضعه في بيت مال الخاصة » . و يزيد أبو هلال الصابئ في هذه الرواية فيقول[٩٨] : « لما قبض على ابن الفرات في الدفعة الثالثة من وزارته وأفرد شفيع اللؤلؤي بحبس له قال له في حبسه : عرف أمير المؤمنين – أيده الله – عني أنني لا أدع نصحا واليا ومنكوبا وأنني حاسبت هارون بن عمران الجهبذ البارحة محاسبة تولاها هشام صاحب بيت المال فكان الباقي عنده من أموال المصادرين مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف دينار ومائتين . وكتب شفيع إلى المقتدر بذلك ونفذت بالرقعة مع قيصر خليفة فصار جواب المقتدر بالله بخطه إلى شفيع بأن يبادر بنفسه إلى دار الخاقاني ويقبض على هارون بن عمران ويأخذ المال من يده ولا يمكن الخاقاني منه . ففعل شفيع ذلك والخاقاني لم يعلم بعد بما عند هارون الجهبذ ، وكانت هذه الحال من أول ما حير به الخاقاني وأدهشه وحمل إلى بيت المال الخاصة وصحح فيه » .

وثبت أنه كان للوزير أبي العباس اليحصبي لدى جهبذه مائة وثمانين ألف درهم أثناء توليه الوزارة في الفترة ما بين ٣١٣ و٣١٤ هـ [٩٩]، ووجد هذا المبلغ محفوظا في صناديق مصونة لدى جهبذه[١٠٠] . وأودع أبو عبد الله البريدي[١٠١] سنة ٣١٥هـ مبلغ عشرة آلاف دينار عند جهبذه استولى عليها ابن مقلة وابنه علي[١٠٢] . وكانت أيضا لهذا الوزير أموال أودعها عند الجهبذين إسرائيل بن صالح وصالح بن نظير سنة ٣٢٤هـ[١٠٣] كذلك أودع الوزير ابن شيرزاد مبلغ ١١٠ ألف دينار جهبذه الخاص علي بن هارون وصادر منه هذا المبلغ أمير الأمراء بجكم سنة ٣٢٩هـ[١٠٤] .

ولقد أدى تفتيش الجهابذة بعد صرف معامليهم من الوظائف إلى أن يودع هؤلاء العاملين نقودهم عند الجهابذة دون أن يسجلوها فى سجلاتهم كى تسلم من المصادرة . فلقد أودع أحد الموظفين عند جهبذ مبلغ مائة ألف دينار دون ذكرها فى السجل الخاص بالجهبذ[١٠٥] .

وكان الجهبذ يستفيد فائدة مضاعفة من الأموال المودعة عنده ، فهو أولا يأخذ من صاحبها فائدة نظير الايداع ، وكان يستغل الأموال المودعه لديه فى التجارة العالمية ، فكان بذلك يضيف أرباحا على أرباحه ويضاعف من ثروته ويزيدها ازديادا مطردا ، هذا ولم تكن المصادرة فى ثروة الجهابذة ذلك أنهم لم يكونوا يحتفظون بكل أموالهم لديهم بل كانوا يودعونها عند رفاقهم التجار اليهود الكبار الذين كانوا يتجرون لهم بها فى أسواق التجارة العالمية .

هذا عن دور الجهابذة فى الإيداع أما دورهم فى التسليف ، فلقد كانوا يقومون بتسليف الوزراء وكبار رجال الدولة ، واتسع أمر سلفياتهم حتى شملت الدولة نفسها ، فلقد نصح عبيد الله بن سليمان[١٠٦] وزير المعتضد ابنه ونائبه أن يقترض من التجار الجهابذة عند الضرورة[١٠٧] ، وكان الوزير ابن الفرات يستدين للدولة من الجهبذ يوسف بن فنحاس أثناء وزارته الأولى وكان ابن فنحاس قد عين سنة ٢٩٦هـ جهبذا على الأهواز ، وكان يسلف الدولة من أمواله ثم يستوفى ما أعطاه للدولة بعد ذلك من خراج الأهواز . يقول الصابى[١٠٨] فى ذلك : « لما تقلد أبو الحسن على بن محمد بن الفرات الوزارة الأولى استدعى ابا عبد الله محمد بن إسماعيل الأنبارى وأبا على محمد بن على بن مقلة فطلب منهما أن يطلبا أى شيء منه فهو على استعداد لاجابتهما فطلب كل منهما طلبات، منها أن يخصص لهما ولكتابهما بجارى شهرين على عمال الأهواز ، ففعل وعرضت الكتب ، عليه فأمر بإخراج نسختها إلى الديوان وضربها بالعلامات وردها إليه بعد ذلك فوقع فيها وأمر بختمها واحضر يوسف بن

فنحاس الجهبذ اليهودى ، وكان جهبذ الأهواز ، فقال له : « أن هذه الحال وافت ولم يتأهب أصحابنا لها وقلد سببت أرزاقهم على مال الأهواز التى ألزم تعجيلها من معاملة الأهواز وأنه لا يتمكن من ملأ ذلك فلم يزل معه فى مناظرة حتى استجاب إلى أطلاق جارى شهر معجلا فى ذلك اليوم ».

وكان الوزير على بن عيسى إذا حل المال وليس له وجه استلف من التجار الجهابذة على سفاتج ترد من الأطراف ولم يحن ميعاد دفعها وقيمتها عشرة آلاف دينار[١٠٩] بربح دانق ونصف فضة فى كل دينار[١١٠] وكان يلزمه فى كل شهر ألفان وخمسمائة درهم أرباحًا[١١١] .

وقد شكى الخليفة الراضى بن المقتدر (٣٢٢ - ٣٢٩هـ) حين حصلت له فى سنة ٣٢٢هـ أزمة مالية من أنه لا يجد فى عصره تجارا أغنياء يلجأ إليهم ليصرفوا عنه أزمته ، هذا برغم وجود الجهبذين اليهوديين إسرائيل بن صالح وسهل بن نظير ، ويبدو أن ثروات هذين الجهبذين لم تكن فى مثل ثروة الجهبذين يوسف وهارون ، كذلك يبدو أن التجار اليهود لم يكونوا يثقون فى الخليفة الراضى فلم يقدموا له بواسطة جهبذيهما الأموال اللازمة له[١١٢]. وكان التجار يتوقفون عن أقراض الدولة اذا ساءت معاملتها للجهابذة .و مثال ذلك ما حصل للوزير ابن شيرزاد (٣٢٢ - ٣٣٤هـ) إذ رفض التجار تسليفه المال لظلمه لهم وللجهابذة ومصادرة أموالهم[١١٣] . ولقد أمن الجهابذة أموالهم بإيداعها طرف زملائهم تجار اليهود المقيمين خارج العاصمة واكتفوا بالتعامل بواسطة السفتاجات والصكوك[١١٤] ، وكانت الدولة الإسلامية قد توسعت آنذالك في استخدامها في التعامل المالى[١١٥] .

وكان قمة ما وصل إليه الجهابذة هو إشرافهم على المصرف المالى الرسمى للدولة العباسية، ذلك المصرف الذى انشأته الدولة عند مطلع القرن الرابع الهجرى ، ولقد تأسس هذاالمصرف على يد الوزير على بن عيسى سنة

٣٠١هـ وصارت رئاسته للجهبذين اليهوديين هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس . وكانت مهمة هذا المصرف الرئيسية هى تسليف الدولة مقابل الفائدة فى وقت ضعفت فيه الدولة ولم يستطع عمالها فى الأقاليم تحصيل ايراداتها فقررت أن تستلف من الجهبذين اليهوديين مقابل تركهما يحصلان واردات اقليم من الاقاليم كضمان لأموالهما . وكان ذلك حين احضر الوزير على بن عيسى الجهبذين المذكورين إلى حضرته وقال لهما ما نصه : « ... تريدان منى أن أزيل عنكما تبعة إن لم أزلها بقيت عليكما وعلى ورثتكما ابد الدهر ولست افعل ذلك إلا بعوض قريب لا ضرر فيه عليكما وهو أننى احتاج فى مستهل كل شهر إلى مال أطلقه فى ستة ايام منه للرجالة ما مبلغه ثلاثون ألف دينار وربما لم يتجد لى فى أول يوم من الشهر ولا فى ثانيه وأريد ان تقرضانى مائة وخمسين ألف دينار وترتجعانها من مال الاهواز فى مدة ايام الشهر فان جهبذة الأهواز إليكما ويكون هذا المال سلفا واقفا لكما أبدا، وأضيف إلى هذا المال الوظيفة التى على حامد وترد فى كل شهر وهو عشرون ألف دينار فيكون ذلك بأزاء مال القسط الأول من النوبة فيخف عنى ثقل ثقيل . فتأبيا ساعة ولم يفارقهما حتى استجابا لذلك»(١١٦) .

ونستخلص من رواية التنوخي والصابىء ما يلى :

١ - أن الوزير على بن عيسى كان يحتاج رواتب شهرية لموظفى الدولة قدرها ثلاثون الف دينار .

٢ - لم تكن ميزانية الدولة تستطيع توفير مثل هذا المبلغ الشهرى بسبب خراب اقتصاد الدولة فى عهد الخليفة المقتدر ، ولم يكن عمالها فى الأقاليم يستطيعون تحصيل ايراداتها كل ذلك نتيجة للفوضى السياسية التى كانت تعيشها الدولة أيام هذا الخليفة بسبب تسلط النساء وغلمان الاتراك على شئونها وما توالى على ديوان الخلافة من وزراء وما كانت تجره تولية كل

وزير من تغيير العمال والكفاءة فى أنحاء البلاد وما يتبع ذلك من الفوضى السياسية والاقتصادية فى الدولة .

٣ – طلب الوزير من الجهبذين تقديم نصف هذا المبلغ دينا على الدولة يستخلصانه من خراج منطقة الاهواز ببلاد فارس وبذلك رهن لهما هذه المنطقة مقابل دفعهما لهذا المبلغ .

٤ – أصبح للجهبذين اليهوديين سلطة التصرف المطلق فى منطقة الأهواز وهى المنطقة التى تركز فيها فى الدولة أكبر وأغنى تجارهم ، بسبب أهمية موقع هذه المنطقة بالنسبة لتجار اليهود الرازانية ولطريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب(١١٧) .

٥ – اشتراك الجهبذين اليهوديين بأموالهما معا فى تمويل هذا المصرف الحكومى، ولقد كان الجهابذة يستقلون فى معاملاتهم ويعمل كل لحسابه الخاص لكن الطلبات الزائدة عليهم جعلتهم يتشاركون من أجل توفير الأموال الطائلة اللازمة للدولة .

ويتفق التنوخى وأبو هلال الصابئ على أن رسم تعيين الجهبذين اليهوديين فى المصرف المالى الرسمى للدولة ظل قائما عليهما وعلى من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة وبعد وفاتهما(١١٨) لانهما ما صرفا إلى أن ماتا فكانا قد تقلدا فى أيام عبيد الله يحيى بن خاقان وكان السلطان لا يرى صرفهما ليبقى جاه الجهبذة مع التجار فيقرض التجار بالجهبذة إذا دعت الضرورة ومتى صُرف الجهبذ وقلد غيره لم يعامله التجار ووقف امر الخليفة(١١٩) . ومن تحليل قول المؤرخين الكبيرين نرى أن الخليفة كان لا يستطيع صرف الجهبذ ومصادرة أمواله لأن الأمر لم يكن يتعلق بهذين الجهبذين فقط وبثرواتهما وإنما كان يتعلق ببقية تجار الدولة اليهود الاغنياء الذين كانوا يقفون وراءهما ويمدانهما بالأموال اللازمة للبلاط الخليفى . ويبدو أن زيادة طلبات دولة الخلافة من الأموال جعلت

الجهبذين اليهوديين عاجزين بمفردهما عن سد حاجات الخلافة ، ومن ثم كانا يقترضان للدولة من التجار اليهود بضمان مركزيهما . ولذلك لم يستطع الخليفة صرفهما لتبقى ثقة التجار قوية فى الخلافة بضمان الجهابذة ، فإذا احتاج الخليفة إلى مال استطاع أن يقترض من التجار بضمان الجهابذة ووساطتهم ، وهو يرى أنه متى صرف الجهبذ وقلد غيره لم يعامله التجار ووقف أمره»(١٢٠) .

ولتشريف هذين الجهبذين اليهوديين أنعم عليهما الخليفة المقتدر بلقب : «جهابذة الحضرة»(١٢١) وأشرك معهما فى هذا اللقب الجهبذ زكريا بن يوحنا(١٢٢). وتذكر المصادر اليهودية أن يوسف بن فنحاس وختنه نطيرة كانا من أكبر رجالات اليهود فى بغداد وأكثر الناس احتراما فى بلاط الخليفة(١٢٣) . وارتفع بذلك مقام حاخام اليهود الأكبر فى بغداد فى ذلك الوقت ، وتشير هذه المصادر إلى أنه أصبح من أهم شخصيات المجتمع العباسى وإنه كان يلقى احتراما زائدا عند وصوله إلى بلاط الخليفة(١٢٤) .

وكانت المكاتبة للجهابذة يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران وزكريا بن يوحنا بجهابذة الحضرة ، أبو فلان بن فلان أبقاه الله ، ويوقع إليهم توقيع أبقاك الله(١٢٥). وذكر القلقشندى(٢١٢٦) بأن لقب الشيخ كان هو الغالب فى تصدير الكتابة لهم ، ومنهم من جرى عليه الرسم فى التلقيب بالإضافة إلى الدولة فيتلقب بولى الدولة ونحوه . ومنهم من يحذف المضاف إليه فى الجملة ويعرف باللقب بالألف واللام فيقولون الشيخ الشمسى والشيخ الصفى والشيخ الموفق وما أشبه ذلك(١٢٧) .

ولقد عاش الجهابذة عيشة طيبة وكانوا يقابلون بالاحترام فى كل مكان وكان بعضهم مغرما بالأدب والغناء ، فكانوا يجزلون العطاء للأدباء والشعراء برغم اتصافهم بالحرص الشديد على المال. يحكى أن جحظة الشاعر (ت٣٢٤هـ) كان مغنيا وقد حصل على رقعة بخمسمائة دينار أعطاه اياها الحسن بن مخلد

على جهبذه . فتوجه إليه فأفهمه الجهبذ أن الرسم أن ينقصه فى كل دينار درهما وخيره بين ذلك وبين أن يركب معه ويقيم عنده يوما وليلة ليشرب ويسمع توقيعه ، فلما أصبح الصباح أعطاه الخمسمائة دينار وأهدى إليه فوقها خمسمائة درهم(١٢٨) . ويحكى عن جهبذ آخر أكثر حبا للفن أن جاء إليه الشاعر أبو بكر اللبادى(١٢٩) ليقبض مالا ثمنا لمدحه أبى القاسم بن أبى الساج . وهو من الأمراء القواد فى أيام الخليفة المقتدر . فصار إلى داره ليقبض خمسين ديناراً من الجهبذ فأبى أن يقبض التوقيع إلا أن يقيم الشاعر عنده فأقام عنده ودفع إليه الخمسين ديناراً وخمسين من عنده وذلك لإعجابه بالقصيدة التى مدح الشاعر بها الأمير(١٣٠).

ولقد ظل نفوذ الجهبذين اليهوديين قويا طيلة الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ، وانعكس صدى هذه القوة فى وثائق الجنيزة . فهنالك خطابات كثيرة ورد فيها ما يفيد بقوة نفوذهما في تلك الفترة . ومن هذه الخطابات خطاب(١٣١) أرسله ، الجاءون(١٣٢) سعديا سعيد بن يوسف الفيومى ، الجاءون الأكبر ببغداد(١٣٣) ، إلى مصر سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لأحد التجار اليهود يطلب منه القدوم إلى بغداد ويقول له فيه ما نصه : « ... وإذا كانت لديك أى مشاكل مع الحكومة فعليك ان توضحها لى ونحن نستطيع أن نسويها بدورنا مع الحكام فى بغداد فهنالك رجالنا من أولاد نطيرة وأولاد هارون .. وبعد ذلك سوف تعاملك السلطات كأنك سيد وسوف تسهل لك كل أمورك فأفعل هذا ولا تفعل غيره»(١٣٤) واستمرت عائلة هارون على أعمال الجهبذة سنة ٣٢٩هـ وذلك عند تولى أمير الأمراء بجكم الوزارة من الوزير ابن شيرا زاد (٣٢٧ - ٣٢٩)(١٣٥).

ولقد جند تجار اليهود كل امكانياتهم فى تلك الفترة (بداية القرن الرابع الهجرى) ، التى تعرف فى تاريخهم بالفترة الجاءونية ، فى اتحاد رؤوس أموالهم فى العراق وخراسان وفارس والشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس للوقوف

خلف الجهابذة اليهود وأمدادهم بالمال المطلوب للخلافة وذلك لكسب المركز الاقتصادى والاجتماعى الممتاز فى العالم الإسلامي. وكانت أكاديمية اليهود فى بابل فى مدن سورا (بجوار الحلة الحالية) وبمباديثا (بجوار الأنبار) وراء هذا التجنيد . وكانت أكاديمية سورا هذه مركز اليهود وقبلتهم الدينية ، وكانت أيضا على صلة متينة مع يهود مصر ويهود الأهواز وبخاصة المتركزين منهم فى مدينتى الأهواز وتستر . ولقد نجحت هذه التعبئة اليهودية فى جمع المال اللازم للجهابذة ليقدموه لبلاط الخلافة لتغطية الاحتياجات المتزايدة للدولة فى عهد الخليفة المقتدر . وساعدت بذلك أموال المصرف اليهودى إلى حد ما ، فى تدعيم خزانة الدولة العباسية آنذاك مدة من الزمن ، وهى المدة التى عاشها الجهبذان اليهوديان هارون ويوسف وثمنًا لذلك حصل اليهود على امتيازات اجتماعية واقتصادية كبيرة من الدولة خدمت اليهود فى كل بلاد العالم الإسلامى وبذلك نجح مخطط اليهود السياسى الذى وضعوه فى أكاديمية بابل لفترة من الزمن . ومن أهم الامتيازات التى حصل عليها اليهود آنذاك هو سماح الخليفة المقتدر والخليفة الراضى لهم بالتعيين فى الخدمة الحكومية . فلقد أصدر الوزير الحسين ابن القاسم بن عبيد الله الكلوذانى سنة ٣١٩هـ مرسومًا يسمح لليهود بالعمل فى الخدمة الحكومية وبخاصة فى الطب والجهبذة[١٣٦] .

ولقد عاش اليهود عصرهم الذهبى فى بلدان الدولة العباسية فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى فى عهد خلافة المقتدر وابنه الراضى . وبدأ هذا العصر فى التلاشى والنقصان مع بداية الربع الثانى من هذا القرن وفى عهد الجهبذ على بن هارون الذى لم يكن على نفس النفوذ الذى كان عليه والده ولا نفس الثروة . ويبدو أيضا أن التجار اليهود احجموا عن مساعدة الجهبذ على بالأموال بعد وفاة الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ) ذلك لأن هؤلاء التجار فقدوا الثقة فى الدولة بعد وفاة هذا الخليفة وخافوا على أموالهم بسبب تردى الأوضاع

السياسية والاقتصادية فى الدولة العباسية آنذاك . فلقد وصلت حالة الدولة إلى أقصى درجات السوء والانحدار فى عهد امرة الأمراء (٣٢٤- ٣٣٤هـ) وذلك لضياع نفوذ الخليفة وسلخ أجزاء كبيرة من الدولة حتى أنه لم يعد فى يده سوى بغداد وأعمالها أما الحكم كله فقد صار فى هذه الفترة للقواد الاتراك ابن رائق ثم بجكم ، ولم يكن الجهابذة والتجار يأمنون لهؤلاء القواد المغامرين فى ظل حكم خلفاء ضعاف أمثال المتقى والمستكفى . وكان ابن شير زاد قد فرض على التجار أموالا جعلتهم يضطرون إلى الهرب من بغداد[١٣٧] .

ولقد انتقم الأمراء الأتراك من موقف الجهابذة والتجار منهم ، فقام أمير الأمراء بجكم فى سنة ٣٣٩هـ بالقبض على على بن هارون وبتعذيبه وبمصادرة مبلغ ١١٠ ألف دينار وجدت عنده ثم أمر بقتله[١٣٨] .

وبقتل هذا الجهبذ انتهى عهد الجهابذة العظام أصحاب المصارف المالية كذلك فإننا بعد قتله لم نعد نسمع أخباراً عن الجهابذة وذلك لدخول الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ فى طور نظام جديد كان له أسلوبه المختلف فى الحكم وفى التنظيم المالى والاقتصادى للدولة[١٣٩] .

هوامش الفصل الثالث

١ - توفى ابن خردانبه سنة ٣٠٠هـ .

٢ - ابن خردانبه : المسالك والممالك ، ليدن ٨٨٩ ، ص ١٥٣ ، ١٩٥٤.

٣ - Birenne :La Civilization Occidentale au Moyen Age, Paris 1933, p. 15.

٤ - عن تجارة الكارم فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، أنظر للمؤلف كتاب تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٩١-١٠٤ ، من ١٧١ - ١٨١.

٥ - المؤلف : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١١٧.

٦ - آدم متز : الحضارة ، جـ١ ، ص ٣١٢.

٧ - Ashtor : Matériaux pour L'Egypte, JESHO, v. vl, Part I, 1963, P. 118.

٨ - Fischel, W : Jews in the economic and Political Life of Medieval Islam, London 1937, P. 3.

٩ - عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بغداد ١٩٤٨ ، ص١٧٠.

١٠- كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، (مترجم) . المجلد الأول ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٣٤.

١١- Goitein : Bankers Accounts from the Eleventh Century A.D., JESHO, v. Ix, 1966, P. 33.

١٢- نقرأ فى وثائق الجنيزة ، وهى الوثائق التى ألقت الضوء على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى الحديث عن بيع وشراء الذهب والفضة من الصيارفة . فنجد فى هذه الوثائق مثلا

عبارة : « اشتريت دنانير من الصراف » وعبارة : « أرسلت فضة إلى فلان ليبيعها عند الصراف» . وفى وثيقة نقرأ ما نصه : «جاء المنصور ومعه مسلمان وطلبا منه ثمن كمية من الكتان فأحضر دنانيرا أعطانى أياها كى أوزنها بحضور الشخصين فوزنتها وفحصتها ووجدت بينها ١٥ دينارًا عدلية.
(Goitein : A meditetranean Society of the High Hiddle Ages, New York 1967, PP. 230 - 231).

١٣- كان الدينار المعزى فى مصر الفاطمية مثلا يساوى ١٣,٣٠ درهم نقره (دراهم فضية نقية) وتراوح سعره من الدراهم السوداء (غير النقية) ما بين ٣٢، ٤٠ درهما أسود خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .
(Goitein: The Exchange of gold silver money in Fatimid and Ayyubid times, JESHO, v. VIII 1965, P. 41.)

١٤- الدورى : تاريخ العراق ، ص ٢٣٣.

١٥- أبو الحسن على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ ، ص ١١٧.

١٦- كلود كاهن : تاريخ العرب ، ص ٢٣٥.

١٧- أبو الحسن على : الدوحة المشتبكة ، ص ١١٧.

١٨- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٧٣.

١٩- المانرائيون هم فى الأصل فرس ينتسبون إلى ماذاريا وهى قرية من أعمال البصرة، ولقد استقر هؤلاء المانرائيون فى سيراف حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ثم هاجروا منها إلى مصر حين اضمحلت أحوالها بسبب تدهور أحوال التجارة فى الخليج العربى بسبب ثورتى الزنج والقرامطة، وكان ذلك فى نهاية حكم الأخشيدين لمصر وبداية حكم الفاطميين . وكان على بن أحمد المانرائى زعيم المانرائيين فى ولاية خمارویة بن أحمد بن طولون إذ اختاره

وزيرا له وفى سنة ٢٧٢ هـ استقدم على بن أحمد إلى مصر ولديه أبا بكر محمد وأبا الطيب أحمد وتولى كل منهما خراج مصر بين سنتى ٣٠١ ، ٣٠٤هـ .

(انظر : سيده كاشف : مصر فى عصر الأخشيدين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ ، ٣٩.

Goitein : Studies in Islamic Hisotry and Institutions, Leyden 1968, P. 238.)

٢٠- تزعم البريديون النشاط المالى فى البصرة ، وكانت لهم امارة شبة مستقلة فى مطلع القرن الرابع الهجرى. ولقد سير أبوعبد الله البريدى جيشا بقيادة أخيه أبى الحسن سنة ٣٢٩هـ وأحل الهزيمة بابن رائق واستولى على بغداد فى عهد خلافه المتقى ، وانتصر عليهم توزون فى البصرة سنة ٣٣١هـ (محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥،ص٤٣).

٢١- Goitein : A meditetranean Society, P. 238.

٢٢- نزح هذان الأخوان من بغداد إلى مصر وأقاما بالفسطاط واتصلا بالبلاط الخليفى الحاكم وارتفع شأنهما فى عهد الخليفة المستنصر. ووصل إبراهيم إلى الوزارة بينما أسند إلى هارون ديوان خاصة الخليفة (ابن ميسر تاريخ مصر، القاهرة ١٩١٩ ، ص١٥ ، ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص٦١) .

٢٣- ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٤٩، ص٢٩.

٢٤- الجهشياري : الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٢٨.

٢٥- مسكويه : تجارب الأمم ، القاهرة ، ١٩١٤ ، جـ١ ، ص٢٤٧.

٢٦- الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٢.

٢٧- سفرنامة : تحقيق وترجمة الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٩٦ (مر

ناصرى خسرو بالبصرة سنة ٤٤٣هـ).

٢٨- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٧١.

٢٩- سفرنامه : ص ١٠٢.

٣٠- آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٧ جـ١ ، ص ٣٧٨.

٣١- الخطط : طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ، ص٩٦.

٣٢- تغير اسم هذه السوق فى عهد دولة المماليك إلى سوق باب الزهومة وهو مقابل لسوق السيوفيين فى طريق السالك الى سجن المعونة .

٣٣- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ٣٧٧.

٣٤- مسكويه : تجارب الأمم ، جـ٢ ، ص ١٨٨.

٣٥- أبو هلال الصابىء : تحفه الأمراء فى تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٩١.

٣٦- البستانى : محيط المحيط ، بيروت ١٨٦٩، ص ٣٠٥.

٣٧- وهى تقابل بالفارسية كلمة : مكبيرتن نقاد دانا ، أى الناقد الكبير (عبد الرحيم بن عبد الكريم صفى : منتهى الأرب فى لغة العرب، جـ١ طهران ١٩٧٧هـ ص ٢٠٧) .

٣٨- هو الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافى النحوى المعروف سكن بغداد وتولى القضاء بها، وكان أعلم الناس بنحو البصريين - توفى سنة ٣٦٨هـ (أبو حيان التوحيدى: الامتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين، جـ١ ، بيروت ١٩٥٣، ص١٠٨).

٣٩- جاء هذا التعريف للجهبذ فى مناظرة حدثت بين أبى سعيد السيرافى وبين أبى بشر متى عالم المنطق فى زمانه فى بغداد (ت٣٢٨هـ) . وكان موضوع المناظرة حول المفاضلة بين المنطق واللغة . ولقد انتهت المناظرة بانتصار أبى

سعيد . ومن قوله في هذه المناظرة : «... إن مال الفئ لا يصح إلا من بيت المال بين مستخرج (جابى ومحصل) وجهبذ (ناقد عارف بالجيد والردىء) والكتاب جهابذة الأقلام والعلماء مستخرجوه » . (أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ، جـ١ ، ص ١٠٨ - ١٣٢) .

٤٠- عرف القلقشندي الصيرفي بقوله : « هو الذي يتولى قبض الأموال وصرفها وهو مأخوذ من الصرف وهو صرف الذهب والفضة في الميزان ، وكان يقال له فيما تقدم الجهبذ (صبح الأعشى القاهرة ، ١٩٢٨، جـ٥ ، ص ٤٦٦).

٤١- تاج العروس ، جـ٢ ، ص ٥٥٨.

٤٢- القاموس المحيط القاهرة ، ١٩٣٣ ، جـ١ ، ص ٣٥٢.

٤٣- البستاني : محيط المحيط ، بيروت ، ١٨٦٩، ص ٣٠٥.

٤٤- الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٧٨.

٤٥- Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, 1 Leyden 1881, P.226.

٤٦- Jews in the economic and political life, P. 3.

٤٧- Fischel : Op. cit., P. 26.

٤٨- Goitein : Studies in Islamic History, P. 249.

٤٩- ولى أبو أيوب سليمان بن وهب الوزارة مرتين الأولى فى خلافة المهتدى سنة ٢٥٥هـ واستمر بها لمدة عام والثانية فى خلافة المعتمد فى ذى الحجة سنة ٢٦٣هـ واستمر بها لمدة عامين إذ عزل عنها فى ذى الحجة سنة ٢٦٥هـ (زامباور : معجم الإنساب ، جـ١ ، ص٧) .

٥٠- نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٥٧.

٥١- ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ليدن ١٨٩٢، ص ١٩٦.

٥٢- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

٥٣- الجهشيارى : الوزراء والكتاب القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٨.

٥٤- استدللنا على ذلك من القصيدة التى لام فيها الشاعر سليط بن لبيد بن عتبه النمرى الخليفة معاوية بن أبى سفيان لتقريبه الجهابذة إلى مجلسه وعدم تقريبه هو وفى ذلك يقول

أتحقرنى ولست لذاك أهــلا

وتدنى الأصغرين من الخوان

جهابذة وكتابا وليســـــوا

بفرسان الكريهة والطعـــان

ستعرفنى وتذكرنى إذا مـــا

تلاقى الحلقتان من البطـــان

٥٥- الوزراء والكتاب ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

٥٦- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٦٢ ، حاشية رقم١ نقلا عن كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى .

٥٧- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٣٠٤.

٥٨- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٩٢.

٥٩ - نفس المصدر السابق ، ص ١٩٣.

٦٠- الخوارزمى ، مفاتيح العلوم القاهرة ،١٩٣٠ ، ص ٤٦ ، ٤٧.

٦١- الوزراء والكتاب ، ص ١١٤.

٦٢- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٧٣.

٦٣ - آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ص ٨٨، ٨٩.

٦٤- آدم ميتز : نفس المصدر ، ص ٨٩.

٦٥- Fischel : Jews in the economic, P. 5.

٦٦- Goitein : Studiesa in Islamic History, P. 249.

٦٧- حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين القاهرة ١٩٦٤ ، ص٨٥.

٦٨- Goitein : Studies, P. 239.

٦٩- المقريزى : أغاثة الأمة بكشف الغمه ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٠ ، ٢١.

٧٠- هو أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى ولى الوزارة للخليفة الفاطمى المستنصر فى المحرم ٤٤٢ واستمر بها حتى سنة ٤٥٠هـ (زامباور : معجم الأنساب جـ١ ص ١٤٩) .

٧١- Fischel : Jews in the economic, P. 5.

٧٢- Ibid, P. 3.

٧٣- وردت أسماء هؤلاء الجهابذة فى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر الذى ناقش فيه أمر هذا الديوان (أنظر كتاب الخراج . الأجزاء التى ما زالت مخطوطة).

٧٤- سوف نتابع الحديث عنهما فيما بعد .

٧٥- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ . نقلا عن قدامة بن جعفر .

٧٦- هو أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر ، تولى الخلافة فى ١٢ جمادى الآخر سنة ٣٣٤هـ (زامباور : معجم الأنساب جـ١ ص٣) .

٧٧- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ص ١٢٠.

٧٨- حكم الخليفة أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوما فى الفترة ما بين سنة ٢٩٥ ، ٣٢٠هـ. ووزر له فى هذه المدة خمسة عشر وزيراً . وكانت أيامه كلها اضطرابات ومصادرات ومات هذا الخليفة مقتولا سنة ٣٢٠هـ .

٧٩- Fischel : Op. cit., PP. 13 - 14.

٨٠- ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ٢٠٣.

٨٢ - ولى الوزارة للمنصور فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ حتى جمادى الآخرة سنة ١٣٨هـ. (زامباور: معجم الإنساب ، جـ١ ص ٥) .

٨٣- الوزراء والكتاب ، ص ٩٩ ، ١٠٠.

٨٤- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٦٣.

٨٥- التنوخى ، نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٥٧ ، (سبق الإشارة إلى ليث هذا) .

٨٦- هو أبو الحسن على بن محمد بن الفرات ، ولى الوزارة للخليفة المقتدر ثلاث مرات. الأولى فى ٢٢ ربيع الثانى ٢٩٦هـ حتى ٤ ذى الحجة ٢٩٩هـ ومكث فيها ثلاث سنوات وخلفه بعدها أبو على محمد بن عبيد الله بن يحيى الخاقانى. والثاية فى ٨ ذى الحجة ٣٠٤هـ حتى جمادى الآخرة ٣٠٦هـ وبقى فيها عامين وخلفه بعدها أبو محمد حامد بن العباس. ، والثالثة فى ربيع الثانى سنة ٣١١هـ حتى ١٣ ربيع الأول ٣١٢هـ بقى فيها عام واحد وقتل فى التاريخ الأخير وخلفه بعده أبو القاسم عبد الله بن محمد الخاقانى وقتل معه ابنه المحسن ، وصودر ابن الفرات على جملة من المال قدرها مليون دينار (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٦٣ - ١٥٠).

٨٧- التنوخى : نشوار المحاضرة ، ص٢٣، الصابىء : تحفة الأمراء، ص٩١.

٨٨- التنوخى : نشوار المحاضرة ، ص ٢٤-٢٦.

٨٩- عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ، ليدن ١٨٩٧، ص ٧٤.

٩٠- ظهر هذا المبلغ حين عزل حامد سنة ٣١١هـ من الوزارة وقام ابن الفرات ، في وزارته الثانية . بمصادرة أمواله فصودر هذا المبلغ الذى كان مودعا لحسابه عند جهبذه إبراهيم بن يوحنا.

٩١- تجارب الأمم ،جـ١ ، القاهرة ١٩١٤، ص ٩٥ ، ٩٦.

٩٢- حكى التنوخى عن حامد بن العباس أن امرأة وقفت له على الطريق فشكت إليه الفقر وطلبت منه البر فجلس ووقع لها بمائتى دينار فأنكر الجهبذ دفع هذا القدر إلى مثلها فراجعه فقال حامد : والله ما كان فى نفسى أن أهب لها إلا مائتى درهم ولكن الله أجرى لهاعلى يدى مائتى دينار فلا أرجع فى ذلك ، أعطها (نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص٢٤).

٩٣- صادر هذا المبلغ من هذا الجهبذ المحسن بن على بن الفرات أيام وزارة والده الثالثة (الصابىء : تجحفة الأمراء . ص ٢٤٦) .

٩٤- هو على بن عيسى بن داود بن الجراح ولى الوزارة فى المحرم (٣٠١هـ حتى ٨ ذى الحجة سنة ٣٠٤هـ (زامباور : معجم الأنساب ، جـ١ ، ص٨) .

٩٥- تحفة الأمراء ، ص ٣١٦.

٩٦- تحفة الأمراء ، ص ٣٣٢.

٩٧- تجارب الأمم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨.

٩٨- تحفة الأمراء ، ص ١٤٠ ، ١٤١.

٩٩- مسكويه ، تجارب الأمم ، ص ١٥٥.

١٠٠- Fischel : Jews in the economic and Political life, P. 15.

١٠١- هو أبو عبد الله أحمد بن محمد البريدى ، ولى الوزارة للخليفة الراضى والمتقى ثلاث مرات الأولى فى ٦ رجب سنة ٣٢٧هـ لمدة عام والثانية لمدة ٢٤ يوما سنة ٣٢٩هـ والثالثة لمدة ١٣ يوما سنة ٣٣٠هـ . (زامباور : معجم الإنساب ، جـ١ ، ص ٨ ، ٩) .

١٠٢- مسكويه : تجارب الأمم ، ص ١٥٨.

(ولى أبو محمد بن على بن الحسن بن مقلة الوزارة أربع مرات : الأولى فى ١٥ ربيع الأول ٣١٦هـ فى عهد الخليفة المقتدر واستمر فيها عامين . والثانية فى ٢٩ شوال سنة ٣٢٠هـ واستمر فيها ٩ شهور فى عهد الخليفة القاهر والثالثة فى ٢٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ فى عهد الخليفة الراضى واستمر فيها

عامين ، والرابعة فى ربيع الثانى ٣٢٦هـ فى عهد الخليفة الراضى أيضا واستمر فيها عدة شهور . (زامباور : معجم الإنساب جـ١ ص٨).

١٠٣- كان هذان الجهبذان يسكنان الأهواز ، وكانا من أكابر التجار فيها .

١٠٤- الدورى: تاريخ العراق ، ص ١٦٧.

١٠٥- التنوخى ، نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤.

١٠٦- توفى سنة ٢٨٨هـ .

١٠٧- الصابىء : الوزراء ، ص ١٨٨.

١٠٨- تحفة الأمراء ، ص ١٩٧ ، ١٩٨.

١٠٩- Fischel : Op. cit., P. 23.

١١٠- التنوخى : نشوار المحاضرة ، ص ٢٦.

الصابئ : تحفة الأمراء ، ص ٩٣.

١١١- وجه ذلك أنه يستلف بربح مقداره درهم عن كل أربعة دنانير إذ أن الدرهم يساوى ست دوانق والدينار ربحه دانق ونصف فقسمه عشرة آلاف على أربعة تساوى ألفين وخمسمائة درهم .

١١٢- مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٣٤٩.

١١٣- الصولى : أخبار الراضى والمتقى بالله ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١.

١١٤- كانت المعاملات المالية الضخمة تستدعى وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص . فظهر لذلك نظام التعامل السفتجة والصك فى الدولة الإسلامية وهما نظامان فارسيان فى الأصل . والسفتجة هى كتاب صاحب المال باعطاء مال لآخر . فإذا أراد شخص فى بلد أن يرسل مبلغا إلى بلد آخر يرسل بدلا من المال السفتجة ذاكرًا فيها قيمة المبلغ . والسفتجة وهى تقابل الآن الشيك السياحى والفرق بين السفاتج والصكوك أن الصكوك تكتب وتصرف فى نفس المدينة بينما

السفاتج تصرف فى شتى المدن وكان للجهبذ مع وجود هذه السفاتج والصكوك شأن كبير إذ كانت أكثر الصكوك والسفاتج تكتب على الجهابذة . (الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٤١ ، آدم ميتز الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٧٣ ، ٢٧٤).

١١٥- يخبرنا أبو شجاع أن أمر التجار صار نافذا فى المشارق والمغارب لأنهم يكتبون سفاتج بالأموال الجمة فى معاملاتهم فيكون أسرع فى الرواج من مال الجباية والخراج وينوه بأن سفاتج التجار كانت تقبل فى بلاد الأعداء بالإضافة إلى رواجها فى البلاد الإسلامية المستقلة (مسكويه: تجارب الأمم، جـ٢ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩) .

١١٦- التنوخى : نشوار المحاضرة ، ص ٢٤ - ٢٦.

الصابئ : تحفة الأمراء ، ص ٩١ - ٩٣.

١١٧- عن تجار اليهود الرازانية ، انظر للمؤلف : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦، ص ٣٢ ، ٣٣.

١١٨- استمر الجهبذان اليهوديان فى منصبهما طوال حياتهما (توفيا على الأرجح سنة ٣١٧هـ) ولم يجرؤ الخليفة المقتدر على عزلهما أو مصادرتهما رغم ما عرف عنه من كثرة حبه للعزل والتولية ودليلنا على ذلك تغييره خمسة عشر وزيرا أيام خلافته (الصابىء : تحفة الأمراء ، ص ٩٣) .

١١٩- نشوار المحاضرة ص٢٦ ، تحفة الأمراء ، ص ٩٣.

١٢٠- التنوخى : نشوار المحاضرة ، ص ٢٦.

١٢١- Fischel: Jews in the ecnomic, P. 8.

١٢٢- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٧٨

١٢٣- نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

Fischel : Op. cit., PP. 34-35

١٢٤- Dubnov : History of the Jews, London 1968, II, P. 354.

١٢٥- الصابىء : تحفة الأمراء ، ص ١٧٧.

١٢٦- صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٩٠ ، ٤٩١.

١٢٧- أورد القلقشندى ذلك ضمن القاب أهل الذمة من الكتاب والصيارف ومن فى معناهم من اليهود والنصارى. (صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١).

١٢٨- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ٣٧٤.

١٢٩- هو أبو بكر أحمد بن محمد اللبادى الشاعر ، وكان من طياب الناس وملاحهم وذوى المجانة والخلاعة ، وسمى اللبادى لأنه كان يلبس أبدا على ثيابه لباداً أحمراً ، وكان يقطن أردبيل أشهر مدن أذربيجان (الشابشتى : الديارات ، بغداد ١٩٥١ ، ص ٣٧٤) .

١٣٠- الشابشتى : الديارات ، ص ١٣٠.

آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ٣٧٤.

١٣١- هذا الخطاب موجود ضمن مجموعة الجنيزة الخاصة باكسفورد ونشر سنة ١٩١٠.

١٣٢- الجاءونية ، منصب دينى كبير فى اليهودية ووظيفة الجاءون هى رئاسة المجتمع اليهودى الذى كان كرسيه فى بغداد (راجع الفصل الثانى)

Goitein : Jews and Arabs, New York 1955, P. 135.

١٣٣- عاش الجاءون سعديا فى الفترة ما بين (٢٦٩ - ٣٣١هـ / ٨٨٢ - ٩٤٢م) وهو مصرى الموطن ، وكان عالما عظيما استطاع أن يصل إلى رئاسة الجاءونية ببغداد ، كذلك كان طبيبا ماهرا وفيلسوفا لغويا وشاعرا توفى سنة ٣٣١هـ.

(ابن النديم : الفرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ ، ص ٣٤، ٣٥).

١٣٤- Fischel : Jews in the economic, P. 34-35.

١٣٥- الدورى : تاريخ العراق ، ص ١٦٦.

١٣٦- S : Dubnov : History of the Jews, 11, P. 351.

١٣٧- محمد جمال الدين سرور ": الحضارة الإسلامية ، ص ٤٦.

١٣٨- كان للوزير ابن شير زاد أموال مودعة عند جهبذه على بن هارون ولذلك قام بجكم بمحاولة استخلاصها من جهبذه .

(الصولى : أخبار الراضى ، ص ١٢٧ ، ١٢٨) .

١٣٩- حكم البويهيون العراق فى الفترة ما بين ٣٣٤ - ٤٤٧هـ . وبرغم صمت المصادر عن أخبار الجهابذة فإن وجود الصيارفة فى الدولة الإسلامية استمر قائما فكان الصراف يسد الفراغ الذى تركه الجهبذ بعد نهاية دولة الجهابذة ولذلك نرى القلقشندى حين يعرف الصيرفى يذكر بأنه كان يعرف قديما باسم الجهبذ وذلك بسبب بعد القلقشندى بعهد الجهابذة وخلطه فى التعريف بين الصيرفى والجهبذ (انظر صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٦٦).

مصادر الفصل الثالث

* أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين جـ١ ، بيروت ١٩٥٣.

* ابو هلال الصابئ : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨.

* آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٧، جـ١، ٢.

* أسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، القاهرة ١٩٤٣.

* التنوخى : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، جـ٨ (جامع التواريخ) طبعة المجمع العلمى بدمشق ، دمشق ١٩٣٠.

* الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨.

* الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢هـ.

* الشابشتى : الديارات ، بغداد ١٩٥١.

* الصولى : أخبار الراضى والمتقى بالله ، القاهرة ١٩٣٦.

* عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابع الهجرى ، بغداد ١٩٤٨.

* عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى . ليدن . ١٨٩٧.

* عطية القوصى : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦.

* **القلقشندى** : صبح الأعشي في صناعة الأنشا ، جـ٥ ، القاهرة ١٩٦٣.
* **محمد جمال الدين سرور** : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، القاهرة ١٩٦٥.
* **ناصرى خسرو** : سفرنامة ، ترجمة ، يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥.

- **Canard Marius** : Baghdad au Iv e Siécle dse L'Hégire, ARABICA, 1962..
- **Dubnov, S** : History of Jews V. II, London 1968.
- **Fischel, W** : Jews in the economic and political life of Mediveal Islam, London 1937.
- **Coitein S** : A mediterranean society of the High Middle Ages, New York 1967.
- **Coitein S** : Bankers accounts from the eleventh contury (JESHO, v. Ix, 1966).
- **Coitein, S** : Studies in Islamic History and Institutions, Leyden 1968.
- **Pirenne, H.** : Histoire économie et social du Moyen Age, Paris 1969.

الفصل الرابع

اليهود فى الأندلس

عاش اليهود فى بلاد الأندلس قبل أن يفتحها المسلمون ويخلصونها من حكم القوط الغربيين كطبقة مغلوبة على أمرها ومقهورة فى كيانها مضطهدة فى دينها ، وجاء الإسلام إلى هذه البلاد فرفع راية العدل والمساواة فيها وخلص الطبقات المضطهدة فيها مما حاق بها من اضطهاد ، وكان اليهود أول هذه الطبقات التى استفادت من هذا الحكم العادل المتسامح .

وكان اليهود قد هربوا إلى أسبانيا وبلاد اليونان وإيطاليا وشمال أفريقيا وبلاد الشرق الإسلامى بعد هدم هيكلهم الثانى[١] . وبعد الحرب التى شنها الرومان ضدهم وقصدوا بها ابادة جنسهم بعد أن لاحقتهم لعنة كنيسة روما التى حملتهم مسئولية دم المسيح ووصمت بها جبينهم . واتجهت أكثر العناصر اليهودية المهاجرة إلى أسبانيا بسبب بعدها عن عاصمة الدولة البيزنطية وضعف سلطان الكنيسة على هذه البلاد . واستقرت هناك فكثر عدد اليهود فى أسبانيا قبل الفتح الإسلامى لها، وشاهد ذلك أننا نجد المؤرخين والجغرافيين المسلمين يذكرون مدنا كثيرة بها قالوا عنها أنها :كانت تزدحم باليهود فى أواخر العهد القوطى . ومن هذه المدن مدينة اليسانة والبيرة، ومدينة طليطلة[٢] . ومدينة قرطبة[٣] التى كان بها حى لليهود عرف باسمهم وكان لهذا الحى باب عرف باسم باب اليهود[٤] . كذلك فى مدينة طركونة[٥] ومدينة غرناطة التى كانت تعرف باغرناطة اليهود[٦] ، ومدينة المرية وبرشلونة[٧] .

وقام اليهود فى هذه البلاد بالأعمال المالية والحسابية فى دواوين الحكومة[٨] ، كما قام بعضهم بالعمل فى التجارة الداخلية والخارجية .

وظن اليهود غداة استقرارهم فى أسبانيا أنهم ، بعد أن هربوا من ارهاب دولة الروم ، أن الحياة طابت لهم هناك وأن الاستقرار والأمان أصبحا مكفولين لهم . لكن الأمور لم تسر فى تلك البلاد على عهد حكم القوط لها وفق هوى اليهود فقد لاحقتهم اللعنة ووصلت إليهم هناك .

ولقد كان اليهود مكروهين من الأسبان أهالى البلاد بسبب اختلاف عقيدتهم[٩] ، وبسبب استحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية وتعاملهم بالربا فلما أحس الحكام القوط بوطأتهم راحوا يناصبونهم العداء ويتواصون باضطهادهم . ولذا تعرضوا لكثير من الاضطهادات ، وباتوا طبقة منبوذة خائفة دفعها الخوف إلى أن تعيش فى أحياء منفصلة مقفلة .

ويذكر بعض المؤرخين أن اليهود فى أسبانيا كانوا على صلة بأبناء ملتهم فى شمال أفريقيا وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التى كانوا يتمتعون بها فى ظل الحكم الإسلامى بعد أن فتح المسلمون هذه البلاد ، وقد دفعهم هذا إلى محاولة اسقاط الدولة القوطية والاستعانة بالعرب فدبروا مؤامرة لقلب نظام الحكم ولكن هذه المؤامرة اكتشف أمرها قبل أن تتم وكان عقاب اليهود على هذا الأمر عقابا عظيماً[١٠] .

وعند مناقشتنا لهذا الأمر لا نستبعد الجانب الأول منه وهو صلة يهود الأندلس بأبناء ملتهم فى شمال أفريقيا فلقد كان اليهود على صلة ببعضهم البعض شأنهم فى ذلك شأن أى أقلية مضطهدة مشتتة وكذلك بسبب اتصال المصالح التجارية بين اليهود فى بلدان عالم ذلك الوقت ، وارتباط اليهود فى المشرق والمغرب بمراكزهم الدينية التى كانوا يحصلون منها على التشريعات الدينية للمسائل التى يتعرضون لها فى حياتهم .

أما عن مسألة الحرية الدينية التى كان يتمتع بها اليهود فى المغرب الإسلامى فلقد كان ذلك حقيقة ولم يرد فى المصادر التاريخية ما يشير إلى اضطهاد وقع على اليهود فى هذه البلاد فى ذلك الوقت .. كذلك يشير تاريخ المسلمين فى المغرب منذ فتحها المسلمون إلى تمتع اليهود بالحرية الكاملة فى الحياة والعقيدة ووصولهم إلى أعلى مناصب الدولة هناك . فلقد شملتهم التشريعات الإسلامية العادلة التى كانت تطبق على أهل الذمة فى المشرق .

أما عن مسألة اتفاق يهود الأندلس مع أشقائهم يهود المغرب على اسقاط القوط ودفع المسلمين إلى حكم بلاد الأندلس فهذا أمر لم يثبت صحته وليست هناك وثيقة واحدة فى مراجعنا العربية تشير إلى حقيقة هذا الأمر(١١). ذلك لأن اليهود فى المغرب أو الأندلس لم يكونوا أصحاب قوة مؤثرة ذات بال تستطيع أن تتحمل هذه المجازفة الكبرى . حقيقة أنا رأينا اليهود يقفون جانب العرب أثناء الفتح وبعده لكن هذه الحقيقة لا تدعم هذا الافتراض فلقد كان لزاما على اليهود في الأندلس أن يتعاونوا مع الفاتح الجديد أيا كان جنسه ليخلصهم مما هم فيه .

وإذا كان مجمع طليطلة الدينى الذى عقد سنة ٦٩٤ م أدعى أصحابه أنهم عقدوه للحكم فى المؤامرة التى دبرها يهود أسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب لإسقاط الدولة القوطية والاستنجاد بالعرب فإن فى ذلك الإدعاء تحاملا على اليهود ومبررا للكنيسة القوطية للتخلص من هؤلاء اليهود .

ومهما يكن من أمر فقد استغلت هذه التهمة كمبرر لفرض عقوبات شاملة على اليهود بغية تنصيرهم وتخليص البلاد من الديانة اليهودية وفرض عليهم أن يختاروا أحد أمرين أما أن ينتصروا أو يصبح من لا يتنصر عبدا تصادر أملاكه كما ينزع منه أولاده بعد بلوغهم السابعة وتربيتهم فى أوساط مسيحية حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة مسيحية . ولم يلبث هذا الشرط الأخير أن طبق حتى على اليهود المتنصرين بحجة أنهم يحتفظون بديانتهم فى باطنهم ويعلمونها لأبنائهم فى السر ويقومون بتختينهم(١٢) .

ولقد انعقد مجمع طليطلة أكثر من مرة للنظر فى أمر اليهود وأمر توقيع العقوبات عليهم واستمرار حملات الاضطهاد ضدهم . وكان أصل هذا المجمع دينيا وكان مجلسا يتكون من كبار القساوسة الكاثوليك يعقدونه بين الحين والحين للنظر فى أمورهم الدينية . وما لبث هذا المجمع أن اتسع سلطانه وأصبح بمثابة مجلس أعلى للدولة ينظر فى أمورها الهامة(١٣) وكان أمر اليهود آنذاك من أكبر

الأمور الملحة على هذا المجمع الذى أراد من خلال قراراته أن يتخلص رجال الدين الكاثوليك من أعداء المسيحية اليهود .

أصدر المجمع الطليطلى الثالث قرارا بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر شيبشوتو سنة ٦١٣م قرارا يخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد وأيد مجمع طليطلة الرابع هذا القرار ، فاضطر كثير من اليهود إلى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية . وعرف هؤلاء باسم اليهود المستترين وقد ضاق بهم القوط ذرعا فقرر مجمع طليطلة الثامن ضرورة تعميدهم من جديد وامتحان تنصيرهم بتقديم لحم الخنزير لهم ليأكلوا منه . ثم حرمت اقامة الشعائر الدينية اليهودية وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية وصبت الكنيسة لعنتها على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على أقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود فى مدينة أربونة حتى طردوهم منها(١٤) .

وبلغ اضطهاد اليهود مداه على يد الملك القوطى ايرفيج حيث قرر مجمع طليطلة الثامن عشر ارغام اليهود جميعا على التنصر أو مبارحة البلاد فى مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المستترين .

وأظهر اليهود تذمرهم وبدأوا يتحركون سرا وأخذوا يحيكون المؤمرات ضد الدولة القوطية . ولم تستمر سرية هذا التحرك وأحس القوط به . فانعقد لذلك مجمع طليطلة السادس عشر على أيام الملك أجيكا وأصدر هذا المجمع أشد قرارات الاضطهاد ضد اليهود . ولقد اعتبرتهم تلك القرارات هراطقة مرتدين وأوصت باتخاذ أعنف الاجراءات ضدهم ، واعتبرت أيضا هذه القرارات اليهود جميعا رقيقا يوزعون على المسيحيين على أن يحرم عليهم عتقهم . كما تقرر فصل أولاد اليهود عن أهاليهم منذ سن السابعة وتربيتهم تربية مسيحية(١٥) .

وانعقد سنة ٦٩٤هـ فى عهد هذا الملك المجمع الطليطلى السابع عشر الذى أوصى بمزيد من الاضطهاد ضدهم لاتهامهم بمحاولة الاتصال بأبناء عمومتهم يهود المغرب ، ومحاولة إغراء العرب بفتح الأندلس .

وهكذا وقع اليهود تحت نير الظلم القوطى قبل الفتح الإسلامى وكان لزاما عليهم أن يتعاونوا مع أى فاتح للأندلس يخلصهم من القوط ومن شر ما هم فيه .

وكان الفتح الإسلامى للأندلس ، وجاء طارق بن زياد بقواته لفتح هذه البلاد وإزاحة حكم القوط عنها ، وذكر المؤرخون المسلمون معاونة اليهود للمسلمين فى الفتح. ولا نزاع فى أن طارقا أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات اليهودية التى باركت فتحه فقد وجد الادلاء الذين قادوه داخل أراضى هذه البلاد الواسعة التى كانت مجهولة بالنسبة للمسلمين .

فذكر المؤرخون أن اليهود هم الذين دلوا طارقا إلى طليطلة عاصمة القوط بعد أن هرب منهاأهلها ولم يبق سواهم . فيها فيقول ابن عذارى المراكشى فى ذلك : « وألفى طارق طليطلة خالية ليس فيها إلا اليهود فى قوم قلة وفر علجها مع أصحابه ولحق طارق بمدينة خلف الجبل بعد أن ضم اليهود وخلى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة ، كذلك دلوه على عورات البلاد ومنافذ أسوارها[١٦] .

وكان من الطبيعى أن يكافىء المسلمون اليهود على ذلك فاتخذوا منهم حرسا لما يفتحونه من البلاد إلى جانب الحرس الإسلامى . يقول فى ذلك ابن الخطيب فى معرض حديثه عن فتح الأندلس[١٧]: « فرق طارق جيوشه من استجه فبعث مغيثا الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى قرطبة وبعث جيشا آخرا إلى مالقة وأرسل جيشا ثالثا إلى غرناطة مدينة البيرة وسار هو فى معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة . قال فخص الجيش الذى وجه طارق إلى مالقة ففتحها ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش

المتوجه إلى البيرة فحاصروا مدينتها وفتحوها عنوة وألفوا بها يهودا ضموهم الى قصبة غرناطة وصار لهم سنة متبعة ، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودا يضمونهم إلى قصبتها ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها » .

وتردد نفس القول عن ضم القوات الإسلامية الفاتحة للأندلس لليهود والاستعانة بهم فى حراسة المدن المفتوحة ، فيقول صاحب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس(١٨) عند حديثه فتح قرطبة : « لما افتتحها المسلمون ألفوا بها يومئذ يهودا وكانوا إذا ألفوا اليهود ببلدة ضموهم إلى مدينة البلدة وتركوا معهم من المسلمين طائفة وفعلوا ذلك بغرناطة مدينة البيرة ولم يفعلوا ذلك بمالقة مدينة ريه لأنهم لم يجدوا بها يهودا ولا عمارة» . وذكر نفس المؤلف فى مكان آخر أن طارقا جمع يهود قرطبة وضمهم اليها(١٩) . كذلك ورد أن موسى بن نصير ضمَّ يهود أشبيليه إليها بعد أن فتحها(٢٠) .

فتح المسلمون معظم أسبانيا وقضوا على حكم القوط هناك ، وأقام المسلمون لهم فى الأندلس دولة زاهرة وعاشت هذه البلاد القرون التى تلت الفتح عيشة مزدهرة فى ظل راية الإسلام . وكان القرنان التاليان للفتح الإسلامى للأندلس نواة ازدهار اليهود فى ظل الإسلام(٢١). فلقد عاش اليهود جنبا إلى جنب مع مسلمى الأندلس وتمتعوا هناك بنسيم حرية الإسلام وعدالته(٢٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساويين مع بقية السكان فى الحقوق والواجبات . ولقد نظر المسلمون إلى الأسبان مسيحيين ويهود نظرتهم إلى أهل الذمة وطبقوا عليهم التشريعات الخاصة بأهل الذمة التى طبقت على أقرانهم فى المشرق الإسلامى(٢٣) .

وليس لدينا مراجع غربية أو عبرية عن تنظيمات جماعات اليهود فى

الأندلس الإسلامى ولكن هذه الجماعات بدت لنا من خلال الوثائق الأسبانية ، وهى مجموعات القوانين والمنشورات التى أصدرها ملوك أسبانيا المسيحية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامى فى أيديهم ، ابتداءا من القرن السادس الهجرى جماعة منظمة تنظيما دقيقا ، وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم أول الأمر ولكن من الطبيعى أن يكون هذا التنظيم قد بدأ فى صورة بدائية ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح لهم الحكم الإسلامى فرصة هذا التكامل بما ضمن من حقوق الذميين ومنهم اليهود(٢٤).

تجمعت جماعات اليهود فى المدن الأسبانية تحت الحكم الإسلامى فى قلب هذه المدن (قصبتها) وأقاموا لهم هنالك أحياء خاصة بهم عرفت مع الزمن باسم حى اليهود أو حارة اليهود وهو الذى عرف فيما بعد فى مصطلح أسبانيا المسيحية باسم اليودرية أو الجودرية Juderia ولقد جاء تجمع اليهود هذا من تلقاء أنفسهم ولم يكن نتيجة اضطهاد أو تنفيذا لأوامر الحاكم المسلم .

وعرفت جالية اليهود باسم عربى هو الجماعة ، وكان يرأس كل جماعة عدد من المبرزين منها يسمون البروريم (البرورين) ومفردها برور أو المقدمين ومفردها مقدم (أو النعمانيم ومفردها نعمان) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين الدينيين يعرفون باسم اليوعاظيم (الواعظين). وكان البروريم والمقدمون ينتخبون فى أول الأمر ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم وكانت مدة ولايتهم عاما(٢٥) . وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها ، وكانوا مسئولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكان لجماعة اليهود فى أسبانيا ناجدها الخاص وكذلك لها ناسى خاص بها ، وكان كل من التاجر والناسى منفصلين عن سيادة رأس جالوت العراق وعن جاءونات أكاديمية سورا وبمباديثا . كذلك كانت لهم أكاديميتهم الدينية التى

عرفت باسم الكلية وكان لها رئيسها الذى عرف باسم (رأس كالا) وكان يرأس ربابنة اليهود . ولقد قامت هذه الكلية هناك لتطوير الدراسات اليهودية . وحمل هذا اللقب العالم حسيداى بن أسحق فى عهد حكم الملك عبد الرحمن الناصر (الثالث)[٢٦]. وكان اعتماد كلية أسبانيا فى أمور التلمود فى أول الأمر على مدارس الجاءونية الكبرى فى العراق فى سورا وبمباديثا ، ولذلك كان شباب اليهود فى الأندلس يذهبون إلى هذه المدارس لتلقى العلم اليهودى بها[٢٧]. ولذلك حدث الأزدهار فى اللقاء بين بابل والأندلس فى القرنين الثالث والرابع الهجريين . وأرسلت أسئلة دينية فى نقاط صعبة من وقت لآخر إلي الجاءونية وكانت تصحب دائما بهدايا قيمة للجاءونية .

ولقد وضع أساس القداس اليهودى وتعاليم الصلاة فى الأندلس على يد الجاءون عمران (٨٥٠م) وأرسل إليهم[٢٨] . وبعد أن تولى أمر هذه الكلية علماء مبرزون من اليهود أخذت هذه الأكاديمية فى الاعتماد على نفسها ولم تعد بعد ذلك تعتمد على جاءونية العراق .

وكان لليهود قوانينهم وقضاتهم (ديانيين) ، وكانت الإدارة الإسلامية لا تتدخل فى شئونهم بل كان للجماعة اليهودية الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات ، وفى الحالات التى كان الخلاف يقع فيها بين مسلمين ويهود كان الأمر يرفع لقاضى المسلمين مثلما كان الأمر عليه فى بلاد المشرق الإسلامى[٢٩] .

وكان قضاة المسلمين يعدلون فى أحكامهم ضد اليهود ويحفظون لهم حقوقهم ويستخلصونها لهم حتى ولو كانت فى يد كبار المسلمين . مصداق ذلك فيما رواه الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى[٣٠] عند تعرضه لسيرة القاضى سليمان بن الأسود الغافقى قاضى الجماعة بقرطبة[٣١] ، وأورد عنه أنه كان رجلا صالحا متقشفا صليبا فى حكمه مهيبا تقلد قضاء قرطبة أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (المستنصر)[٣٢] وأنه قلده هذا المنصب بسبب حكم

أمضاه بمدينة ماردة وهو قاض عليها للأمير عبد الرحمن والده ومحمد أمير عليها لصالح رجل يهودى . وذلك أن الأمير محمد احتبس لرجل يهودى من تجار جليقية جارية أعجبته واشتط اليهودى فى ثمنها فدس غلمانه لاختلاسها من اليهودى وفزع اليهودى إلى سليمان بمظلمته واستشهد بمن حول دار الإمارة ممن عرف خبرها فأوصل سليمان إلى الأمير محمد يعرفه بما ذكر اليهودى وما شهد به لديه ويقبح عنده سوء الأحدوثة عنده ويسأله اعادة الجارية إليه . فأنكر محمد ما زعمه اليهودى فأعاد إليه القاضى الرسالة يقول له : « أن هذا اليهودى الضعيف لا يقدر أن يدعى على الأمير بباطل وقد شهد عندى قوم من التجار فليأمر الأمير بانصافه ، فلج محمد ولج سليمان فأرسل إليه سليمان ثانية يقسم بالله العظيم لئن لم يصرف على اليهودى جاريته ليركبن دابته من فوره ، ويكون طريقه إلى الأمير والده يعلمه الخبر ويستعفيه من قضائه ، فلم يلتفت محمد إلى وصيته ، فشد سليمان على نفسه وركب دابته سائرا إلى قرطبة وكانت طريقه على دار الإمارة فدخل الفتيان إلى محمد فعرفوه بسيره فأشفق من ذلك وأرسل خلفه فتى من ثقاته يقول له أن الجارية قد وجد خبرها عند بعض فتيانه وقد كان قد أخفاها بغير أمره وها هى حاضرة ترد إلى اليهودى فلحقه الرسول على ميل أو نحوه من ماردة وأعلمه فقال : « والله لا أنصرف من موضعى راجعا أو أوتى بالجارية إلى هذا المكان ويقبضها اليهودى ها هنا وإلا مضيت لوجهى » فأرسل محمد الجارية إليه . فلما صارت بين يديه أرسل فى اليهودى مولاها وفى ثقات من ثقات أهل البلدوفعها إليه بمحضرهم ، وأعجب الأمير محمدا بما كان منه واسترجعه واعتقد تفضله فلما ولى الخلافة واحتاج إلى قاض ولاه وأعزه »[٣٣] .

وكانت لليهود بيعهم التى تقام فيها صلواتهم فى حرية ، وانقسم اليهود فى الأندلس إلى ربانية وقرائين ، وكان الصراع قائما بينهما واتخذ نفس طابع الصراع بينهما فى بلاد المشرق الإسلامى[٣٤] .

وكانت العلاقة بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج فى الجماعة الإسلامية فاستعربت السنتهم وأخذوا لباس المسلمين وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن وتقلدوا بالتقاليد والعادات العربية وأحرزوا الجاه والثروة والنفوذ(٣٥) .

واشتغل يهود الأندلس بالتجارة العالمية ما بين الشرق والغرب وشاركوا فى ذلك أخوانهم اليهود الرازانية القادمين من منطقة بروفانس بفرنسا والذين احتكروا التجارة العالمية ما بين الشرق والغرب خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام(٣٦)، وكانت مدينة المرية أهم مراكزهم فى الأندلس .

وازدهرت أعمال اليهود التجارية والصناعية فى الأندلس فى ظل الإسلام فى عهد الخلفاء الأمويين وعهد ملوك الطوائف ووصلوا فى ظل الخلافة فى قرطبة إلى ذروة النفوذ وقمة السلطة وتملكوا الثروة والجاه .

وأدى ازدهار اليهود السياسى والاقتصادى إلى ظهور شخصيات يهودية كبيرة استطاعت أن تصل إلى مراكز الحكم الهامة حتى أن بعضها وصل إلى كرسى الوزارة : ويأتى على رأس هؤلاء :

العلامة الناسى أبو يوسف حسيداى بن اسحق بن عزرا بن شبروط اليهودى (٩١٥-٩٧٠م) أيام حكم الملك عبد الرحمن الناصر (الثالث) فى قرطبة(٣٧) .

وكان لحسيداى الإشراف على الخزانة العامة بعد أن حظى برعاية الناصر بسبب افضاله الطبية والعلمية وخدماته الدبلوماسية ، وزر له ولابنه الحكم من بعده (٣٨) .

وكانت قرطبة فى عهد الناصر وعهد ابنه الحكم عاصمة أسبانيا الإسلامية التى كانت الأندلس تشكل جزءًا هاما منها ، ولقد جعل غنى الأقليم وكثرة سكانه وأهمية موقعه جعل منه أول المراكز التجارية فى جنوب أسبانيا.

وكانت التجارة فى هذا الأقليم من أهم عوامل ازدهاره ، ولقد كان عبد الرحمن الثالث حاكما سياسيا حكيما عرف كيف يستفيد من إمكانيات دولته ومن أشخاصها المبرزين فيها بغض النظر عن ملتهم ولذلك طرح التعصب الدينى جانبا وآثر الاستعانة بمجهودات وأفكار حسيداى اليهودى .

وكانت قد وصلت عبد الرحمن الناصر مجموعة كتب علمية يونانية ، جاء معظمها فى علم الطب من الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى بصحبة راهب يدعى نيقولا يتولى أمر شرحها لأنه لم يكن هنالك فى قرطبة من يعرف اليونانية. واستمر اتصال حسيداى مع نيقولا هذا لدراسة هذه الاعمال اليونانية وكشف أسرارها(٣٩) . ولقد أوفد الملك الناصر حسيداى مرات عديدة فى جهود دبلوماسية إلى ملك ليون المسيحى أوردونو الثالث(٤٠) .

وكان حسيداى يجمع العلماء والدارسين حوله وكان أهم العلماء اليهود الدين كان يجتمع إليهم العالم مناحيم بن يعقوب الطرطوشى مؤلف أقدم القواميس العربية . كذلك كان يجتمع مع العالم الشاعر اليهودى دناش بن لبراط(٤١) وبالعالم الفلكى اليهودى اسحق بن سليمان الإسرائيلى الذى نبغ أيضا فى الطب والفلسفة وعمر ما يزيد عن المائة عام(٤٢) .

وتقدمت الدراسة التلمودية فى قرطبة فى عهد حسيداى وبفضل جهوده(٤٣) ، فلقد ازدهر فى عهده اللقاء بين أسبانيا و بين أكاديميات العراق ، وكان يهود أسبانيا يرسلون اسئلتهم الدينية إلى جاءونات العراق وكانوا يتلقون منهم الرد عليها ، وكان رئيس ربابنة اليهود فى قرطبة على أيام حسيداى يدعى ناتان وكان رجلا قليل العلم وليس على الما تام بالظروف العالمية للديانة اليهودية ، وحدث فى ذلك الوقت أن وقع فى أسر أحد قادة أسطول الملك؛ الناصر ويدعى روماخير عددٌ من علماء اليهود الكبار . وكان هؤلاء العلماء على متن سفينة مسيحية كانت تعبر بحر إيجه وقام روماحيز بالاستيلاء عليها ، وقام قائد السفينة بأسر هؤلاء

العلماء وبيعهم كرقيق ، وكان من بين هؤلاء العلماء ثلاثة من كبار علماء اليهود هم :

العالم شماريا الذى بيع فى الإسكندرية واعتقه هنالك يهودها واختير أول رابى لليهود فى مصر ، والثانى العالم شوشيل الذى أصبح هو وابنه شانانيل من أكبر شراح التوراة والتلمود فيما بعد . أما الثالث وهو موسى بن حنوك الذى أحضره قائد السفينة مع ابنه خانوخ إلى قرطبة وقام يهود قرطبة بدفع ديتهما واعتاقهما(٤٤) .

وبرز نجم موسى بن حنوك فى قرطبة وظهر علمه ، وذلك بعد حضوره ذات يوم إلى مجلس الرابى ناتان الدينى وكان يتعرض لشرح يوم الفداء فى التلمود وعدم استطاعته شرح الموضوع شرحا وافيا . فاستأذن موسى فى الشرح وأبدع فيه ابداعا لفت نظر الجميع إليه فادركوا وأدرك معهم الرابى ناتان سعة علم موسى ومعرفته ، فأمطره الحاضرون بوابل من الأسئلة الدينية والشرعية فأجاب عنها كلها فى ثقة أدهشت الجميع . وحين انفض المجلس الدينى ودخلت جموع اليهود العادية كما هى العادة إلى الرابى ناتان ليقضى بينهم فى قضاياهم المدنية ترك مكانه وأشار لهم إلى موسى قائلا :

« لم أعد بعد الآن قاضيا وقاضيكم هو ذلك الغريب المتواضع فى ملبسه فهو أستاذى وأنا تلميذ له فاذهبوا واحتكموا إليه » . وتقدم ناتان بطلب لمجلس الربابنة اليهود بأن يعين موسى بن حنوك رئيسا للربابنة فوافق المجلس على ذلك ورحب الملك الناصر بهذه الموافقة لأنه رأى أنه بوجود مثل هذا العالم فى دولته أصبح فى إمكانه الابتعاد عن نفوذ أكاديميات بابل اليهودية لكراهيته لكل ما هو عراقى ، كذلك لتوفيره الأموال التى كان يرسلها يهود مملكته كل عام إلى أكاديميات العراق اليهودية(٤٥) .

وأصبح حسيداى من أكبر أصدقاء الرابى موسى بن حنوك ومن أكبر المؤيدين والمناصرين له . ولقد تعلم حسيداى الكثير على يديه ، كذلك تعلم على يديه عددكبير من تلاميذ العلم جاءوا إليه من شتى بلاد الأندلس والمغرب بسبب ذيع صيته وشهرته ، وأدى هذا الأمر إلى ازدهار الدراسة التلمودية فى الأندلس وأعطاها دفعة قوية منذ ذلك الوقت(٤٦). وقد ظلت تعاليم وتفسيرات التلمود الأندلسية معمولا بها بين يهود فرنسا طوال القرنين السابع والثامن الهجريين (١٣، ١٤)(٤٧) .

وكان حسيداى وراء هذا الازدهار الدينى للتعاليم اليهودية فى الأندلس وفى غيرها من سائر البلاد التى تواجد اليهود فيها وخاصة بين يهود مملكة الخزر، فلقد كان حسيداى على صلة طيبة بيهود الخزر وبملك مملكة الخزر الذى كان يعتنق الديانة اليهودية . وكانت لحسيداى مراسلات مع هذا الملك نمت على يد العالم اليهودى يعقوب بن اليعازار(٤٨) .

وظل نشاط حسيداى العلمى والدينى والسياسى قائما طوال عهد الملك عبد الرحمن الناصر ، ونحن لا نعلم السنة التى مات فيها حسيداى وكل ما نعلمه أنه مات فى بداية عهد الخليفة الثانى الحكم بن عبد الرحمن الناصر .

وكان قد تولى رئاسة الربانة اليهود فى بداية عهد هذا الخليفة وقبل موت حسيداى الرابى خانوخ بن موسى بن حنوك خلفا لوالده فى هذا المركز بعد وفاته . وبرغم أن خانوخ هذا لم يكن فى مكانة والده وسعة علمه إلا أن حسيداى وقف وراءه وناصره كما فعل مع والده من قبل . ولكن بوفاة حسيداى فقد هذا الرابى خير مؤيد وحامى له فوقع خلاف بين اليهود ورغب بعضهم فى جعل الشاعر اليهودى الشهير يوسف بن أبطور وهو من تلاميذ موسى بن حنوك رئيسا للربانة بدلا من خانوخ . وكان ابن أبطور عالما كبيرا قام بترجمة جزء من التلمود إلى العربية (ربما المشنا فقط) للخليفة الحكم بن عبد الرحمن لكن جماعة

ابن ابطور فشلت فى مساعيها وحاول ابن أبطور أن يحصل على عون الخليفة دون جدوى واعتذر له الخليفة بحجة عدم رغبته فى التدخل فى شئون اليهود الداخلية[٤٩] ، ولذلك ارتحل ابن أبطور إلى دمشق بعد فشل محاولاته المتكررة لتحقيق غرضه .

وظل خانوخ كبيرا للربانة اليهود بعد فشل محاولات ابن أبطور ، ولم تهدأ الأمور بعد ذلك لخانوخ فقد برز فى قرطبة بعد رحيل ابن أبطور تاجران يهوديان ثريان وهما الأخوان يعقوب ويوسف جاف وكانا يتاجران فى الحرير وأحرزا فى تجارتهما ثروة طائلة وتقربا للخليفة هشام بن الحكم وللمنصور حاجبه ورئيس وزارته . وبسبب ذلك النفوذ اختير يعقوب رئيسا لأكاديمية اليهود الدينية بالأندلس. وبذل يعقوب جهده لاقصاء خانوخ عن منصب كبير الربابنة والحلول مكانه دون جدوى بسبب تمسك اليهود بخانوخ ، فأرسل خانوخ إلى ابن أبطور يستدعيه من الشام لتولى الرئاسة مكانه لكن ابن ابطور رفض هذا العرض بعد اقتناعه بأحقية خانوخ له . هذا ولم يستمر يعقوب جاف على رئاسة الأكاديمية اليهودية سوى عام واحد إذ أقصى عنها وزج به فى السجن بسبب عدم وفائه لحاجب الخليفة فى تقديم ما وعد به من مال وهدايا . واستمر خانوخ فى منصبه بسبب حب اليهود له وبسبب تواضعه والحياة المتقشفة التى كان يحياها شأنه فى ذلك شأن العلماء آنذاك الذين كانوا يعتقدون باثم تقاضى أى مال من أجل توصيل واعلاء كلمة الله[٥٠].

ومن الشخصيات السياسية اليهودية القوية التى ظهرت فى بلاد الأندلس أيام حكم المسلمين لها شخصية الرابى إسماعيل بن نغراله اليهودى (٣٩٣-٤٥٩هـ/ ٩٩٣- ١٠٥٥م).

وينتسب إسماعيل بن نغراله إلى مدينة غرناطة التى كان اليهود يشكلون غالبية سكانها ولذلك كان المسلمون يطلقون عليها اغرناطة اليهود . تربى

إسماعيل فى غرناطة ونشأ فيها ونبغ من بين يهودها حتى وصل إلى كرسى الوزارة فى عهد حكم بنى زيرى لمنطقة غرناطة (التى كانت تشتمل على هذه المدينة وعلى مدينة مالقة وبعض مدن جنوب أسبانيا) . وتولى إسماعيل الوزارة والكتابة للملك حبوس بن زيرى ولابنه الملك باديس بن حبوس(٥١). وكانت مدة وزارته لهما ثلاثون عاما(٥٢) . يقول ابن عذارى المراكشى(٥٣) فى شأن وزارة إسماعيل بن نغرالة وعلو مكانة اليهود فى عهده ما نصه : «استمر ابن نغراله وزيرا وكاتبا لباديس وأقره على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعه فوق كل منزلة فاتخذ هذا اليهودى عمالا ومتصرفين فى الأشغال واكتسبوا الجاه والمال فى أيامه واستطالوا على المسلمين » .

وكان ابن نغراله إلى جانب حنكته السياسية أديبا وعالما ، تلقى تعاليمه الدينية على يد الرابى خانوخ بن موسى بن حنوك وتعلم أصول اللغة العبرية على يد يهوذا بن حيوج واضع أسس قواعد اللغة العبرية وأجاد الحديث بست لغات أخرى إلى جانب العربية والعبرية ، وكان إسماعيل يعمل بالتجارة قبل احترافه بالسياسة(٥٤) .

وجاء ظهور نجم ابن نغراله فى عالم السياسة عرضا ونتيجة لحادثة عادية فلقد كان دكان ابن نغراله الذى كان يتجر فيه يقع بالقرب من قصر أبى القاسم كبير وزراء الملك حبوس ويده اليمنى . وقام خدم أبى القاسم بنقل خطابات بها مديح من ابن نغراله للوزير كتبها بلغة عربية سليمة وخط جميل أنيق فاعجب أبو القاسم بجمال خط هذه الرسائل وحلاوة أسلوبها فأرسل فى طلب ابن نغراله وأعجب به وبثقافته الواسعة فعرض عليه أن يكون كاتبه فوافق ابن نغراله وأسكنه الوزير معه فى قصره . ومع الأيام اكتشف ابو القاسم فى ابن نغراله حسن التفكير وسداد الرأى فاتخذه مستشاراً له وأصبح لا يبرم شيئا فى أمور الدولة دون استشارته . ولما مرض أبو القاسم مرض الموت حزن حبوس عليه

حزنا شديدا وسأله وهو على فراش الموت عمن يساعده فى شئون الحكم من بعده فأوصى الوزير الملك بكاتبه اليهودى ، فوافق الملك حبوس على اتخاذ إسماعيل بن نغراله كاتبا ولما اكتشف الملك مواهب إسماعيل المتعددة لم يتردد فى اسناد الوزارة والكتابه له . وقام كذلك باسكانه معه فى قصره ومنذ ذلك التاريخ (١٠٥٠م) وحتى نهاية حياته أصبح إسماعيل بن نغراله الحاكم الحقيقى فى دولة بنى زيرى الصنهاجية(٥٥) .

وارتفعت مكانة اليهود فى غرناطة على يد ابن نغراله فسمح لهم بالعمل فى وظائف الحكومة وبالالتحاق بالجيش ومساواتهم فى هذا الأمر بالمسلمين وبسبب شهرة إسماعيل بن نغراله وعلو مكانته قصده الشعراء والكتاب المسلمون واليهود وقاموا بمدحه(٥٦) .

ولقد عاش إسماعيل بن نغراله حياة حافلة ولم يمنعه عمله بالسياسة من مواصلة حياته العلمية والأدبية والدينية فلقد كان يواصل نظم الشعر بالعربية وبالعبرية . كذلك كان مستمراً فى أبحاثه فى قواعد اللغة العبرية وهو يعد من كبار علماء هذه اللغة وتأتى كتبه فى قواعدها ضمن الكتب الأساسية فيها .

وجمع ابن نغراله بين رئاسة الحكومة ورئاسة ربابنة اليهود ، وواظب على عقد مجالسه العلمية والدينية وكان يجمع شباب اليهود حوله ويشرح لهم تعاليم التوراة ، والتلمود ، وكان يقوم بالرد على أسئلة اليهود الدينية التى كانت ترد إليه من مختلف البقاع ، ويعد إسماعيل بن نغراله أول من استخدم المنهج العلمى فى دراسة التلمود ، وكذلك يعد أول من كتب تاريخا لليهود بعد هدم هيكلهم (٥٧) .

وكانت لابن نغراله اتصالاته الواسعة مع زعماء يهود المغرب المعاصرين له، ولقد كانت صلته على الخصوص قوية بالرابى نسيم بن يعقوب بن سالم رابى القيروان وكان عالما تلموديا كبيرا ومن كبار علماء عصره(٥٨) .

توفى إسماعيل بن نغراله حوالى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٥٥م عن عمر ناهز الثالثة والستين ودفن فى مدينة غرناطة وقبره ما زال موجودا حتى الآن يعرفه يهود اليوم ويقومون بزيارته ، ويحكى ابن الخطيب عن حزن اليهود لوفاته بقوله: « هلك فى العشر الثانى لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة فجلل اليهود نعشه ونكسوا له أعناقهم خاضعين وتعاقدوه جازعين وبكوه معلنين »[٥٩] ، ولقد نعاه الشاعر اليهودى الكبير سليمان بن جبرول فى قصيدة طويلة جميلة ، كذلك نعاه الشاعر اليهودى الكبير يوسف بن حسيداى[٦٠] .

وبسبب علو مكانة إسماعيل بن نغراله عند باديس أحل ابنه يوسف مكانه فى المنزلة وفى الوزارة واستعاض بخدمته عن أبيه بعد وفاته . وكان إسماعيل قد أعد ابنه يوسف اعدادا تامًا لهذا الأمر ، « وحمله على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية يعلمونه ويدارسونه وأعلقه بصناعة الكتابة ورسخه لأول حركته لكتابه ابن مخدومه بلكين برتبة المترشح لمكانة تمهيدا لقواعد خدمته ، فلما هلك إسماعيل فى هذا الوقت أدناه باديس اليه وأظهر الاغتباط به والاستعاضة بخدمته عن أبيه»[٦١] .

يوسف بن إسماعيل بن نغراله اليهودي (٤٥٩ - ٤٦٩هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٤م).

تولى يوسف بن نغراله الوزارة لباديس بعد وفاة أبيه وأحرز من المكانة والسلطة فى غرناطة ما لم يحرزه وزير من قبله . وذكر ابن الخطيب عنه قوله[٦٢] أنه : « كان مدبر دولته الذى لا يقطع أمرًا دونه مستخليا مستكتما بسره مصمما فى عزمه ان هو لم يوافقه عليه » . ولقد كان يوسف يتمتع بصفات خاصة أهلته لأحكام أمر الوزارة ، فلقد كان كما ذكر عنه ابن عذارى[٦٣] : « لم يعرف ذل الذمة ولا قذر اليهودية ، وكان جميل الوجه حاد الذهن فأخذ نفسه بالاجتهاد فى الأحوال واستخراج الأموال واستعمل اليهود أخوانه على الأعمال فزادت منزلته

عند أميره باديس وكانت له عيون عليه فى قصره من نساء وفتيان شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والأنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجرى فى منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به فلا يكاد باديس يتنفس الا ويعلم اليهودى ذلك» .

وأضاف ابن حيان عن كفاءة هذا الوزير اليهودى قوله(٦٤) : « وكان هذا اللعين فى ذاته على مازوى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ودماثة وركانة ودهاء ومكرا وملكا لنفسه وبسطا من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه واستسلالا لحقودهم بحلمه ناهيك من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربى ونظر فيه وقرأ كتبه وطابع أصوله فانطلقت يده ولسانه وصار يكاتب عنه وعن صاحبه بالعربى فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله ما يريده ولايقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام فجمع ذلك . السجيج فى علوم الأوائل الرياضية وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية ويشارك فى الهندسة المنطق يفوق الجدل كل مستول منه على غاية قليل الكلام في ذكائه ما قتا للسباب دائم التفكر جمّاعة للكتب » .

وأورد ابن بسام رسائل وقصائد مدح فيها حاكم المرية ابن صمادح(٦٦) الوزير يوسف بن نغرالة ، ومما ورد فى رسالة من هذه الرسائل قوله عنه : « ... فتى كرم خالا وعما شرح من المجد ما كان معمى ، قسا فصاحة وكعبا وسماحة ولقمان علمًا والأحنف حلما ، أكرم همة من همام وأعظم بسطة من بسطام ان خاطب أو جز وأن غالب أعجز وأن جاد أجاد أو وعد أعاد يأمر ويمير ويأجر ويجير مأوى السماح والضيف ورحلة الشتاء والصيف حامى الذمار بعيد المضمار...»

ومن قصيدة طويلة قوله :

قرن الفضائل والفواضـــل

فشأى الأواخر والأوائـــل

سقطوا برفعة فضلـــــبــه

كالشمس في شرف المناقل

هذا هو يوسف الـــــــذى

ورث الفضائل عن فواضـل

وذكـر ابن الخطيب دور ابن نغـراله الخطيـر في سـيـاسـة دولة باديس واستخدامه حكمته ودهائه في ارساء قواعد حكم مخدومه ، وتجلي هذا الامر في موقفه من افشال المحاولة التي حاول فيها باديس التخلص من كبار رجال دولته والفـتك بهم بسـبب غـضب طارىء تملكه عليـهم . يقـول ابن الخطيب فـي ذلك : « ..وكان باديس أراد الفتك بأهل حضرته جميعا ودبر أن يأتى ذلك عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة. وحذره يوسف من ذلك ولكنه لم يأخذ بنصيحته . وذكر أن اليهود ي دس نسوانًا الي معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطه ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة ولم يأتها إلا نفر من عامتهم وجاء إلى باديس الخبر والجيش فى السلام حول قصره فساءه وفت فى عضده ولم يشك في فشو سره »(٦٧) .

وكان يوسف بن نغراله قد وصل إلى قمة سلطانه فى أواخر عهد باديس واستطاع أن يتخلص من كل معارضيه حتى صفا الحكم له وصارت لليهود صوله على المسلمين فى دولته(٦٨) .

ولقد استطاع يوسف أن يتخلص من بلكين ولى عهد باديس وخليفته فى الحكم حين اشتم كراهية بلكين له ومحاولته التخلص منه فدبر له مؤامرة أودت بحياته(٦٩) . ويحكى ابن عذارى قصة هذه المؤامرة بقوله(٧٠) «كان لباديس ولد

اسمه بلقين رشحه للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة وكان له خاصة من المسلمين يخدمونه وكان مبغضا فى هذا اليهودى (يوسف بن نغراله) فبلغه أنه تكلم فيه عند أبيه فبلغ ذلك من اليهودى كل مبلغ ودبر الحيلة عليه فدخل اللعين يوما على الفتى وقبل الأرض بين يديه فقال له قُل ما تريده فقال له : يرغب عبدك منك ان تدخل داره مع من أحببت من رجالك يستشرف العبد بذلك فدخل إليه فقدم له ولرجاله طعاما وشرابا وجعل السم فى الكأس لابن باديس فرام القيأ فلم يقدر عليه فحمل إلى قصره فقضى نحبه فى غد يومه ولم يعلم أبوه سبب موته فقرر اللعين عنده أصحابه وبعض جواريه سموه وتفرق أمره فقتل باديس من جوارى ولده ومن فتيانه وبنى عمه جماعة كبيرة وخافه سائرهم ففروا عنه وأقبل باديس على شرابه ليتسلى به عن مصابه».

وتذكر المصادر التاريخية أن يوسف بن نغراله اراد أن يقيم لليهود دولة فى مدينة المرية ، ولذلك اتصل بحاكمها ابن صمادح فى السر واتفق معه على أن يدخله غرناطه ويخلص له حكمها على أن يتنازل له ولأهل ملته اليهود عن حكم المريه[٧١] . وأخذ ابن نغراله فى ضم أكثر حصون غرناطه لابن صمادح دون أن يشعر باديس بذلك تمهيدا لفتحها[٧٢]. لكن أمر هذا الاتفاق وصل إلى رجال صنهاجة ، الذين ضاقوا باتساع سلطان اليهود فى غرناطه ، فقرروا الخلاص من ابن نغراله ، ومن سطوة اليهود عليهم[٧٣] .

فهاجمت أعداد كبيرة منهم ومعهم جملة من العامة دار ابن نغراله فاختفى فى بيت فحم وسود وجهه يروم التنكر لكنهم عرفوه وقضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب غرناطة . وكان ذلك سنة تسع وستين وأربعمائة (١٠٦٤م)[٧٤] .

***

ولقد ظهرت فى الأندلس فى ظل الإسلام طائفة كبيرة من أطباء اليهود حظت بعطف خلفاء وحكام المسلمين هناك وهيأت لهم كل الظروف الطبية لممارسة مهنتهم وتطويرها ، ومن أشهر هؤلاء الأطباء الذين تحدثت عنهم المصادر التاريخية يأتى الطبيب :

*** حسيداى بن أسحق بن شبروط (٩١٠ - ٩٧٠م) :**

وكان عالما وطبيبا فى عهد الملك عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم[٧٥] واشتهر بترجمة كتاب ديسقوريوس عن الأعشاب الطبية من اليونانية إلى العربية وهو الكتاب الذى أهدى قيصر الروم منه نسخة إلى الناصر ، وذكر عنه ابن أبى أصيبعة أنه اعتنى بصناعة الطب وكذلك بفقه اليهود وتاريخهم .

*** الطبيب مناحيم بن الفوال :**

وهو يهودى من سكان سرقسطه وكان متقدما فى صناعة الطب متصرفا مع ذلك فى علم المنطق وسائر علوم الفلسفة .

ولمناحيم من الكتب كتاب كنز المقل على طريق المسألة والجواب وخمسة جُمل من قوانين المنطق وأصول الطبيعة[٧٧] .

*** الطبيب ابن بكلارش اليهودى :**

ترجم له ابن أبى أصيبعة وقال عنه أنه خدم بصناعة الطب بنى هود وله من الكتب كتاب : « المجدولة فى الأدوية المفردة» ، وضعه مجدولا وألفه بمدينة المريه للمستعين بالله أبى جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود »[٧٨] .

*** الطبيب أسحق بن قسطار :**

وكان أيضًا يهوديًا وخدم الموفق مجاهد العامرى وابنه اقبال الدولة على . وكان وافر العقل جميل الأخلاق . توفى بطليطلة سنة ٤٤٨هـ وله من العمر خمس وسبعون عاما[٧٩] .

* **الطبيب مروان بن جناح :**

كان يهوديًا وله عناية بصناعة المنطق والتوسع فى علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب وله من الكتب كتاب التلخيص وقد ضمنه ترجمة للأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة فى صناعة الطلب والأوزان والمكاييل (٨٠) .

* **الطبيب الياس بن المدور اليهودى الرندى :**

كان طبيبا مجدا وكان أيضا شاعرًا . تحدث عنه المقرى ضمن الشعراء ولم يشر إلى زمن وجوده أو تاريخ وفاته .

* **الطبيب أبو الفضل حسيداى بن يوسف بن حسيداى :**

من ساكنى مدينة سرقسطة ، ذكر عنه ابن أبى أصيبعة(٨٢) أنه من بيت أشراف اليهود بالأندلس وأنه من ولد موسى النبى عليه السلام. عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها . وكان له نظر فى الطب وكان فى الحياة سنة ٤٥٨هـ وهو فى سن الشباب .

* **الطبيب الرئيس موسى ين ميمون :**

يقول عنه ابن أبى أصيبعة أنه كان أوحد زمانه فى صناعة الطب وفى أعمالها ، وكان له من الكتب فيها : «اختصار الكتب الستة عشرة لجالينوس»، «مقالة فى البواسير وعلاجها» ، «مقالة فى تدبير الصحة » صنفها للأفضل على ابن الملك الناصر صلاح الدين، « مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القاتلة» وغيرها .

وكان أبو عمران موسى بن ميمون قد ولد فى قرطبة بالأندلس (٣٠ مارس ١١٣٥م) ، وكان والده ديانا ومعلما بقرطبة تعلم منه موسى التعاليم الدينية وحين

بلغ موسى سن الثالثة عشر سقطت قرطبة فى يد الموحدين ، ولقد خير الأمير عبد المنعم الموحدى (١١٣٠- ١١٦٣) اليهود والمسيحيين بين الإسلام أو ترك البلاد . وكان على ابن ميمون وأسرته أن يختاروا أحد الأمرين فارتحلوا عن قرطبة إلى بعض بلاد الأندلس ثم ارتحلوا إلى مدينة فاس بالمغرب ثم ركبت البحر مهاجرة إلى فلسطين . وبسبب الاضطهاد الصليبى الذى كان يسود فلسطين ارتحلت الأسرة إلى الإسكندرية وأخيرًا استقرت فى الفسطاط وفى الفسطاط اكتسب موسى قوته من مهنة الطب التى أجاد حذقها فى الأندلس[٨٤]. ولم تمض سنوات قليلة على اقامته بالفسطاط حتى ذاع صيته بها وأصبح له السيادة فيها[٨٥] واختير الطبيب الأول لوزير صلاح الدين «القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى» الذى أوصله إلى البلاط السلطانى وغمره بامتيازات عديدة[٨٦]. وكان موسى قد حصل على نفس المكانة عند «ريتشارد قلب الأسد» حين أوفد لعلاجه فى عسقلان وعرض عليه ريتشارد أن يبق معه وأن يكون طبيبه الخاص لكن موسى لم يكن يأمن غدر الصليبيين المسيحيين وفضل العيش تحت راية حكم الحاكم العادل المسلم صلاح الدين. ولقد كافأه صلاح الدين مقابل خدماته الطبية والعلمية ومنحه لقب « رأس الأمة» تشريفا له وتعظيما[٨٧] .

ولقد عاش موسى بن ميمون حياته فى عمل متواصل دون كلل أو ملل وكان التطبيب يأخذ منه معظم وقته ، ولقد تحدث عن ذلك الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر (حوالى سنة ١١٩٩م) وذكر ذيوع صيت الطبيب موسى ابن ميمون وشهرة ابنه الطبيب إبراهيم . ولقد نقل المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة عن الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى ترجمته لحياة ابن ميمون على لسانه : أنه سافر إلى مصر فى أواخر أيام السلطان صلاح الدين وأن البغدادى قابل ضمن من قابلهم من الأفاضل الرئيس موسى بن ميمون الذى قال عنه ما نصه . « فجاءنى موسى فوجدته فاضلا فى الغاية قد غلب عليه حب الرياسة

وخدم أرباب الدنيا وعمل كتابا فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وعمل كتابا لليهود سماه الدلالة»[٨٨] .

احياء اللغة والأدب العبرى فى الأندلس:

أصبحت اللغة العربية منذ القرن الثالث الهجرى هى لغة اليهود الشرقيين ودخلت هذه اللغة لوقت طويل وفرضت نفسها على الأدب اليهودى العبرى والآرامى ، وساعدت اللغة الجديدة اليهود فاستعملوها فى الكتابة وشاع هذا الاستعمال بينهم إلى حد بعيد . وظهر فى القرن الثالث الهجرى أدب عربى يهودى وكان هذا الأدب هو أداة النهضة اليهودية فى العصور الوسطى[٨٩] .

ولقد ازدهرت الحركة الفكرية اليهودية فى الأندلس فى ظل ازدهار الحركة الفكرية العام فى هذه البلاد فى ظل الإسلام . وبدأ اليهود فى هذه البلاد بفضل مساعدة علماء المسلمين لهم يهتمون بإحياء لغتهم العبرية وتراثهم الأدبى ويترسمون فى ذلك خطوات المسلمين فى العناية بلغة القرآن وآدابه. وكانت فى مدينة أليسانه أكاديمية علمية لليهود تقوم بتعليم العربية والعبرية معا وكان علماؤها يستعينون بعلماء المسلمين فى هذه الأكاديمية للنهوض بلغتهم وبوضع قواعد لها . وقد تخرج من هذه الأكاديمية علماء يهود نهضوا بلغتهم وتمكنوا من وضع قواعد لها[٩٠] .

فقد ظهر في القرن الرابع الهجري العالم اليهودي اللغوي أبو سليمان داود إبراهيم الذى ألف معجما ضخما للغة العبرية أسماه الأجرون (ومعناه بالعربية : جامع الألفاظ) .

كذلك ظهر من بعده نحاة ولغويون يهود منهم يهوا بن قريش وأبو زكريا يحيى بن داود المشهور بيهودا حيوج ، وهو أول من نظم علم الصرف والنحو اليهودى والاشتقاق فى اللغة العبرية على النحو العربى ، ويعد حيوج واضع

أسس قواعد اللغة العبرية[٩١] . وتعلم على يديه أصول اللغة العبرية الوزير العالم إسماعيل بن نغرالة الذى يعد من كبار علماء اليهود فى أصول قواعد اللغة العبرية[٩٢] .

ولقد ظهر فى ذلك الوقت العالم اليهودى يحيى بن غناش الذى وضع نظريات خاصة باللغة العبرية وقواعدها خالف فيها أراء حيوج ولقد تصدى إسماعيل بن نغراله لغناش مدافعا عن آراء أستاذه حيوج ويعد غناش من أكبر علماء فقه اللغة العبرية وما زالت آراؤه قائمة حتى الآن وتعد أساس تقدم هذه اللغة وازدهارها[٩٣] .

واتبع غناش من علماء اللغة اليهود فى الأندلس العالم مناحيم يعقوب بن سروق الطرطوشى (المولود فى مدينة طرطوشة) وصاحب أقدم قاموس للغة العربية بعد الأجرون .

ولقد انتقد هذا القاموس الشاعر اليهودى دونش بن لبراط[٩٤] الذى يعد من كبار لغوى وشعراء عصره[٩٥] .

وفى القرن السادس الهجرى ظهر العالم اللغوى اليهودى أبو الوليد مروان ابن جناح القرطبى امام نحاة العبرية ولغوييها على الإطلاق ، وكان معاصرا للأمام أحمد بن حزم .

ومن هذه النهضة للغة العبرية ولقواعدها تفجرت نهضة أدبية كبرى فبعد حدب فكرى طويل بدأ اليهود يكتبون الشعر بالعبرية على أوزان البحور العربية كما نظم بعضهم أيضا الشعر بالعربية وأجاد نظمه ، واشتهر من بين هؤلاء الشعراء :

* الشاعر موسى بن عزرا والشاعر إبراهيم بن عزرا ، وكانا أخوين ومن أعاظم الشعراء[٩٦] وينتسبان إلى مدينة تطيلة ، ولقد توفى إبراهيم سنة ١١٦٧م.

* الشاعر يوسف بن أبطور : وكان شاعراً وعالما ، عاش فى عهد الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وكان له شعر جميل ، وحاول بفضل علمه أن يترأس الربانة اليهود لكنه فشل فى ذلك(٩٧).

* الشاعر سليمان بن جبرول : وكان مفكرا كبيرا أو شاعرا عظيما ، وكان معاصرا للوزير إسماعيل بن نغرالة ومتمتعًا بتأييده ورعايته وله أشعار جميلة بعضها فى مدحه . ويعد هذا الشاعر من أول كتاب التراجيديا اليهود(٩٨) .

* الشاعر أبو عمرو يوسف بن حسيداى : وكان معاصرا للوزير ابن نغراله وللشاعر ابن جبرول ، كتب شعرا جميلا فى إسماعيل بن نغراله شبهه فيه بالنبى إسماعيل(٩٩) .

* كذلك كان الوزير إسماعيل بن نغرالة شاعراوخبيرا بالوزن والقافية(١٠٠) ، وذكر عنه ابن عذارى قوله انه كان من أبرز أهل الأدب والشعر(١٠١) .

ولقد أورد المقرى فى كتابه « نفح الطبيب شعراً جميلا لشاعر يهودى أندلسى يدعى إبراهيم بن سهل واستشهد بهذا الشعر على أنه دليل على اشتغال يهود الأندلس بالعلوم العربية(١٠٢) . ولقد حدث أبو حيان التوحيدى عن قاضى القضاة أبى بكر محمد بن أبى النصر الفتح بن على الأنصارى الأشبيلى بغرناطة أن إبراهيم بن سهل الشاعر الأشبيلى كان يهوديا ثم أسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصيدة طويلة بارعة . قال أبو حيان : وقفت عليها وهى من أبدع ما نظم فى معناها »(١٠٣) وسئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة ونظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهودية(١٠٤) . ولابن سهل ديوان كبير بالمغرب حاز به قصب السبق فى النظم والتوشيح(١٠٥) .

* الشاعر نسيم الإسرائيلى : أورد المقرى شعراً جميلا له ، وذكر عنه قوله من

أنه شاعر وشاح من أهل أشبيلية وأن الحجارى ذكره فى كتابه المسهب[١٠٦].

ونبغت فى الأندلس شاعرة يهودية يقال لها قسمونة بنت إسماعيل المروى . وكان أبوها شاعرًا اعتنى بتأديبها . وذكر المقرى بأن والدها كان يصنع قسمًا من الموشحة وتقوم هى باتمامها بقسم آخر . وأضاف بأنها كانت جميلة ولها شعر جميل أورد المقرى بعضا منه فى كتابه[١٠٧] .

كذلك ذكر المقرى من أن هناك طبيبا يهوديا شاعرا يدعى الياس بن المدور الرندى ، كان له شعر جميل ومناظرات بالشعر مع طبيب آخر يهودى منافس له[١٠٨] .

وتحدث المقرى أيضا عن الشاعر اليهودى إبراهيم بن الخفار الذى تمكن من الأنفونش ملك طليطلة المسيحى وصيره سفيرا بينه وبين حكام المغرب والأندلس المسلمين. وذكر بأنه كان عارفا بالمنطق والشعر وأن له شعرًا جميلاً[١٠٩] وأنه كان يتمتع بخفة الظل[١١٠] .

هذا فضلا عن الشاعرين اللغويين الكبيرين مناحيم بن سروق الطرطوشى ودوناش بن لبراط[١١١] . ولقد كتب الأول شعرًا جميلا فى حسيداى بن اسحق وفى مدح ملك الخزر ونظم الثانى الشعر العبرى على غرار الشعر العربى[١١٢] .

* ويعد الشاعر يهودا اللاوى من أشهر شعراء الأندلس اليهود ، وأحرز فى عام ١١٤٠م شهرة كبيرة . ومن أهم أعماله كتاب الخزرى ، الذى كتبه بالشعر العربى على شكل حوار بين ملك الخزر وفيلسوف مسلم وآخر مسيحى وفيلسوف يهودى من القرائين ، وحاول فى هذا الكتاب الدفاع عن مذهب اليهودية الربانية[١١٣] .

ويعد الوزير يوسف بن إسماعيل بن نغراله من كبار أدباء اليهود فى الأندلس فلقد ذكر عنه ابن الخطيب قوله من أنه كتب بالقلمين يعنى بالقلم العربى

والقلم العبرى، «واعتنى بالعلمين» أى العلوم العقلية والعلوم النقلية ، و«شغف باللسان العربى ونظر فيه وقرأ كتبه وطالع أصوله فانطلقت يده ولسانه وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى فى علوم الدين وغيرها»[١١٤] وزاد على ذلك ابن الخطيب عن تأدب يوسف بن نغراله عند حديثه عن مقتله بقوله : «ومكانه من النظر فى الأدب معروف وإنما أتينا اخباره لكونه ممن لا يمنع ذكره فى أعلام الأدباء والأفراد الا نحلته»[١١٥] . وذكر ابن عذارى أنه عند وفاة يوسف وجدت له فيما وجد له خزانة جليلة من كتب أشتات العلوم الإسلامية وذكر أنه كان له وراقون ينسخون له الكتب بالنفقات والمرتبات[١١٦] .

كذلك يعد حسيداى بن إسحق من أهم أحبار اليهود وأهم علماء شريعتهم ويساوى فى مكانته مكانة موسى بن ميمون . وهو أول من فتح منهم لأهل الأندلس باب علمهم فى الفقه والتاريخ وغير ذلك . وكان اليهود قبله يضطرون إلى اللجوء فى فقه دينهم وفى تاريخهم ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون بها مداخل تاريخهم ومبادئ سنتهم فلما اتصل حسيداى بالحكم ونال عند الحاكم المسلم نهاية الحظوة توصل إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الأندلس ما كانوا قبل ذلك يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه[١١٧].

وظهر فى الأدب العبرى فن المقامات المسجوعة التى كانت تحاكى مقامات الحريرى وبديع الزمان الهمذانى . واشتهر بهذه المقامات فى الأدب العبرى الأديب يهوا بن سليمان الحريرى (المتوفى سنة ١٢٣٠م) .

هذا عدا كتب الحكمة والفلسفة والعلوم وما ترجمه اليهود إلى لغتهم من آثار الفكر العربى الكبرى ، ثم ما ألفوه من كتب الرحلات التى كان من أشهرها كتاب بنيامين التطيلى الأندلسى . ولقد زار هذا الرحالة بلاد العالم الإسلامى فى

الفترة ما بين سنوات ١١٧٠ - ١١٧٣ وسجل فى كتاب رحلته الشهير جميع ما رآه فى هذه البلاد مما يتعلق بأمور أبناء ملته اليهود(١١٨) .

ووضعت كتب فى التشريع اليهودى وفلسفة العقائد . وقد برع فى هذا الميدان الطبيب العلامة الشهير موسى بن ميمون .

وإذا كانت هذه الشخصية اليهودية الأندلسية قد أحرزت مكانة هامة فى المجتمع المصرى فى عهد صلاح الدين فإنه كان لهذه الشخصية دور عظيم فى حياة كل اليهود منذ عهده حتى الآن . ذلك لأن هذا الرجل يعتبر المؤسس الحقيقى للديانة والتشريع اليهوديين وواضع أسس هذه العقيدة ومثبت أركان الإيمان بها ، ولقد رفعه اليهود إلى مرتبة النبوة وأطلقوا عليه النبى موسى الثانى(١١٨)، ولذلك فإن يهود اليوم يدينون للسلطان المسلم صلاح الدين بارساء قواعد دينهم بفضل روح التسامح الدينى التى ظللت عهده ،والتى أعطت المناخ المناسب لنبوغ علامة اليهود موسى بن ميمون الذى كان له الحظوة والمكانة فى بلاط السلطان المسلم.

ولقد أتاحت الزعامة التى أحرزها موسى بن ميمون على المجتمع اليهودى الفرصة له لإعادة تنظيم العقيدة اليهودية وإعادة ترتيب التلمود واستخلاص الأحكام الشرعية والفتاوى منها وتخليصها مما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير(١١٩). واستطاع وسط زحمة العمل أن يؤلف كتبه الدينية التى كانت سر شهرته وعظمته بين يهود العالم. ولقد أراد فى هذه الكتابات أن يوفق بين التوراة والتلمود وأن يشرح الحقائق الرئيسية للديانة اليهودية فى العقيدة والتشريع، وأراد أن يبسط للناس التعاليم اليهودية بعد أن استعصى فهمها على اليهود بسبب كثرة التضارب فى كتبهم المقدسة(١٢٠) .

وكتب موسى بن ميمون نتيجة دراساته فى الأندلس والمغرب ، ويعد وصوله

مصر بثلاث سنوات (١١٦٨م) أهم أعماله وهى «المشنا المبسطة» وكانت أول محاولة لوضع مشنا مبسطة للعامة ، وفى سنة ١١٨٠م أخرج عمله الثانى الكبير وهو « مشنا توراة» (اعادة الشريعة) والذى عرف بالتوراة الثانية عند اليهود ، ويعد من أبرز الكتب الأدبية فى العالم .، ولقد قسمه إلى أربع عشرة جزءًا أوضح فيها التعاليم اليهودية ببساطة وصاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبرى سهل واضح دقيق[١٢١] .

كذلك أخرج كتابه الفلسفى «دلالة الحائرين»[١٢٢] الذى مزج فيه بين التعاليم اليهودية وفلسفة أرسطو . ولقد تأثر موسى بن ميمون فى كتاباته بنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين وبفلسفة الأشاعرة[١٢٣] .

وحاول ابن ميمون فى كتاباته ان يقرب بين طائفتى الربانية والقرائين[١٢٤]. ولقد خلف موسى بن ميمون فى منصبه الدينى ووظيفة الطب ابنه إبراهيم[١٢٥] .

وهكذا استطاع اليهود فى ظل راية الحضارة الإسلامية أن يتطلعوا بأفكارهم وأن ينهضوا بتعاليم شريعتهم وأصول لغتهم وأدبهم العبرى بعد أن كادت كلها أن تموت تحت ظلام أوروبا العصور الوسطى وتزدهر فى ظل تراث الحضارة الإسلامية فى الأندلس .

ولقد قام علماء اليهود بالأندلس بترجمة بعض الكتب العربية فى مختلف الوان المعرفة إلى اللاتينية والعبرية ، وبسبب هذه الترجمة أتيح لأوروبا الانتفاع بثمار الحضارة الإسلامية فى الأندلس . ومن المعروف أيضا أن أوروبا لم تعرف علوم اليونان وحكمتهم رأسا إنما عرفتها فى كتب المسلمين التى ترجمها اليهود لهم إلى لغتهم[١٢٦] . وكانت مدينة طليطلة من أكبر مراكز اليهود فى ترجمة علوم المسلمين إلى اللاتينية والعبرية وكانت من أهم المدن التى قامت بتصدير هذه الكتب المترجمة إلى أوروبا[١٢٧] .

وفى ختام بحثنا عن اليهود فى الأندلس الإسلامية لنا وقفة علينا أن نقفها عند موضوع وقوع الاضطهاد على يهود الأندلس فى عهد حكم المرابطين والموحدين لها . وهو موضوع يحلو لبعض المتعصبين من كتاب اليهود الوقوف عنده وإبرازه بقصد اظهار تعصب المسلمين فى الأندلس ضدهم وحجب ضوء شمس التسامح الإسلامى هناك . وقبل الخوض فى تفصيل هذا الامر لنا أن نقول أن فترة خضوع بلاد الأندلس لحكم المرابطين والموحدين لم تكن إلا فترة وجيزة تعدت القرن الواحد بسنوات وجيزة من مجموع ثمانية قرون طويلة عمرها الحكم الإسلامى هناك . وحتى هذا القرن الواحد لم يقع الاضطهاد فيه على اليهود إلا لفترات وجيزة لا يظهر حجمها فى خضم حجم هذا الحكم الكبير المتسامح. كذلك لو تحرينا أسباب هذا الاضطهاد الذى وقع لوجدنا أنه اما نتيجة لتآمر وقع من اليهود ضد حكام البلاد تأييدا لبعض المتمردين عليهم أو تآمرهم مع أعدائهم ملوك الأسبان المسيحيين. ذلك لأن اليهود وقفوا إلى جانب المسيحيين عندما بدا الصراع بين المسلمين والمسيحيين على حكم أسبانيا ووضعوا أنفسهم فى خدمة الغزاة الذين انتهزوا ضعف دولة الإسلام فى الأندلس وراحوا ، مستفيدين من هذا الضعف، يسلبونهم مدينة بعد أخرى . وقام اليهود مع الملوك المسيحيين بنفس الدور الذى قاموا به مع المسلمين غداة فتحهم لأسبانيا أيام حكم القوط لها . وإذا نحن فسرنا موقف اليهود من دولة القوط أنه كان رداً على اضطهادهم لهم ومحاولتهم ابادة جنسهم فإننا لا نجد تفسيرا لخيانتهم للمسلمين الذين فتحوا لهم صدورهم وقلوبهم. وإذا كان اليهود قد قبضوا ثمن تعاونهم مع المسلمين غداة فتح الأندلس تسامحا وحبا ومساواة وعدلا إلا أنهم قبضوا ثمن تعاونهم مع المسيحيين اضطهادا وكراهية وتفرقة وجورا. فما كاد الأمر يستتب للمسيحيين فى الأندلس بعد أن قضوا على آخر معاقل المسلمين حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين وصبوا لعنتهم عليهم حتى اجتثوا وجودهم من القطر الذى خانوه أكثر من مرة[١٢٨] .

ولقد امتد عصر السيادة الأفريقية على الأندلس على يد المرابطين والموحدين فى الفترة ما بين ٤٧٩ - ٦١١هـ/ ١٠٨٦ - ١٢١٤م ، وهى فترة امتدت حوالى قرن وربع قرن من مجموع حكم المسلمين لهذه البلاد البالغ ثمانية قرون .

بدأ يوسف بن تاشفين المرابطى احتكاكه باليهود حين اضطر إلى فرض الأتاوات على أهل المغرب والأندلس للمساهمة فى أعمال الجهاد بسبب تضخم الدولة المرابطة وتضاعف جيوشها ومسئولياتها بعد افتتاح الأندلس واتساع نطاق أعمال الجهاد فى شبه الجزيرة وعدم كفاية موارده الشرعية المتواضعة لمواجهة مسئوليات دولته الكبيرة فلجأ إلى تحصيل الأموال من اليهود ولا سيما يهود بلدة أليسانه[١٢٩]، وكان يهودها أغنى يهود العالم آنئذ.

وكان يوسف بن تاشفين يبغض اليهود ويرى ارغامهم على اعتناق الإسلام وشجعه على ذلك بالنسبة ليهود الأندلس فقيه قرطبى زعم أنه وقع فى أحد الكتب حديث منسوب إلى النبى مفاده أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالنبى العربى وأن يعتنقوا الإسلام إذا حلت الخمسمائة عام من الهجرة ولم يظهر لهم النبى الرسول الذى بشر به موسى فى التوراة ،وبأنه سوف يكون منهم وأن نبيهم يكون عندئذ هو نفسه نبى المسلمين ويتحتم عليهم اعتناق الإسلام .

وحين مر يوسف بيهود مدينة أليسانه الأغنياء أراد أن يرغم أهلها على اعتناق الإسلام لكن فقيها آخر أفتى بأنه يجوز تركهم على أن يفدوا أنفسهم ، فدفع يهود تلك المدينة بعض المال لأمير المسلمين مقابل الاحتفاظ بدينهم وجرت هذه السياسة أيضا مع اليهود فى عهد ولده علي[١٣٠] .

ولم تذكر المصادر أن اليهود فى الأندلس قد أجبروا على ترك ديارهم في أول عهد المرابطين واكتفت بأن ذكرت ان الاضطهاد اقتصر على الحصول على

بعض أموالهم . ولكنها ذكرت أن اليهود تعرضوا للطرد حين ثبتت خيانتهم واتصالهم بملك أراجون الفونسو الأول (١١٠٥- ١١٣٤م) يطلبون منه فتح غرناطة ، (ولقد أطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم ابن رذمير) . يقول فى ذلك ابن الخطيب ما نصه [١٣١] : « أرسل اليهود إلى ابن رذمير يطلبون منه فتح غرناطة فقام بالهجوم على المدينة الذى فشل . ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المعاهدين أخذهم الارجاف ووغرت لهم الصدور باستدعائهم الروم وما فى ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة. وافتى بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم وأخذ بقوله ونفذ بذلك عهد وأعجز منهم إلى بر العدوة فى رمضان عدد جم أنكرتهم الأهواء وأكلتهم الطرق وتفرقوا شذر مذر» .

وحين هزم الموحدون المرابطين سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م واستولوا على أراضيهم التى حكموها ومنها مناطق حكمهم بالأندلس تعرضوا لموقف معاد من اليهود كان له أثره فى سياستهم التعسفية التى اتخذها الموحدون ضدهم بعد أن خلص لهم حكم البلاد . فأثناء فتح الموحدين للأندلس قام قائد بربرى يعرف بابن همشك بمهاجمة غرناطة واستطاع رغم إرادتهم ومع حليفهم المسمى ابن دهرى أن يتفق معهم على أن يسهلوا له دخول المدينة فى ليلة معينة ، وكانت غرناطة فى الواقع دون دفاع قوى فسار إليها ابن همشك فى بعض قواته ، وفى ليلة من ليالى جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ تمت الخيانة المدبرة وكسر اليهود بايعاز من ابن دهرى باب الربض بغرناطة وتنادوا بالصياح : « ياللأصحاب» فدخل ابن همشك وأصحابه المدينة وفر أنصار الموحدين إلى القصبة . وكان ابن همشك جبارا قاسيا فظا غليظا فى ضربه فنكل بالموحدين وبأنصار هم اشد تنكيل ، وطلب أهالى المدينة النجدة من الخليفة عبد المؤمن فأرسل إليها ابنه السيد أبا سعيد فى قواته إلى غرناطة . ولقد هزمت قوات ابن همشك هذه القوة فأرسل

الخليفة قوة أخرى بقيادة ابنه أبى يعقوب يوسف استطاعت أن تحرز النصر على ابن همشك فى موقعة «السبيكة» واستطاع الموحدون على أثرها دخول غرناطة ظافرين (٢٨ رجب ٥٥٧هـ)[١٣٢] . وكان لابد للموحدين أن يصفوا حسابهم مع اليهود على أثر خيانتهم لهم ومع من تحالفوا معهم من المسلمين والمسيحيين . ولذلك أصدر الأمير عبد المؤمن قراراً بوجوب خروج اليهود والنصارى من أراضى دولة الموحدين وحدد لهم فيه إجلاء لمغادرة البلاد إلا من اسلم منهم فهؤلاء يصبحون رعايا لهم ما للمسلمين الخلص وعليهم ماعليهم ومن بقى من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب ولم يعتنق الاسلام فقد حل دمه وماله[١٣٣] .

وكان من جراء هذا القرار أن غادر المغرب والأندلس كثير من النصارى واليهود المخفين أى الذين لا تثقلهم أعباء الأسرة والأعمال وبقى معهم من ثقلت اعباؤه وتظاهروا باعتناق الإسلام انقاذا لأنفسهم وأموالهم .

وقد لجأ كثير من اليهود إلى ممالك أسبانيا المسيحية التى رحبت بهم ووثق بهم ملوكهم ووكلوا إليهم كثيرا من المهام[١٣٤]. ومن هؤلاء ابن شاليب اليهودى الذى حكم طليطلة نيابة عن صاحب قشتالة اذفونش بن فردينانـد الذى كان قد استولى عليها وعلى الثغر الجوفىء . وكان ابن عباد صاحب أشبيلية يدفع ضريبة لابن شاليب ، يقول ابن الخطيب[١٣٥] عن حضور ابن شاليب رسول ملك قشتاله إلى ابن عباد فى أشبيليه ما نصه « ووصله رسوله اليهودى المعين لقبض الضرائب وتجريع المسلمين كؤوس المصائب فنزل بظاهر اشبيليه فى موكب من فرسان سلطانه وكتاب ديوانه وأبرز له المال فلم يرضى عياره وأقسم أن مولاه لا يقنع فى السنة المقبلة إلا بالبلاد وجمع بلسان الصولة ما أساء ابن عباد[١٣٦] » .

كذلك تمكن عند الأذفونش ملك طليطلة المسيحى الشاعر اليهودى إبراهيم

ابن الفخار الذى كان عارفا بالمنطق وكانت له الحظوة عند الملك المسيحى وكان سفيره بين ملوك المغرب(١٣٧) .

وتمكن فى قشتالة الطبيب اليهودى الحكيم الشهير يوسف بن وقار الإسرائيلى الطليطلى. وكان معاصراً للسان الدين بن الخطيب الوزير المؤرخ المعروف . والذى استقى منه ابن الخطيب مادته التاريخية عن ملوك النصارى بقشتاله. وكان ابن وقار قد عمل كتابا فى تاريخ قشتاله وذلك بأمر من مليكها الأعظم دوق الفنش(١٣٨) .

وبرغم اعتناق بعض يهود المغرب والأندلس الإسلام فى عهد الموحدين إلا أن الموحدين كانوا يشكون فى إسلامهم ولذلك ميزوهم بلباس يختصون به دون غيرهم . ففى عهد أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن أمر أن يتميز اليهود بلبس ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى أقرب من أقدامهم وأن يلبسوا بدلا من العمائم كلوتات كالبراديع تبلغ إلى تحت آذانهم . ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرا من أيام ابنه أبى عبد الله إلى أن غيرَّه أبو عبد الله بعد أن توسلوا إليه فى ذلك فـأمرهم بأن يلبسوا ثيابًا صفراً وعمائم صفراً . ويقرر عبد الواحد المراكشى(١٣٩) أن ذلك استمر إلى عهده (٦٢١هـ) وذكر أن ما حمل أبا يوسف على ماصنعه مع أفرادهم بهذا الزى وتمييزه اياهم به شكه فى أسلامهم وذكر أنه كان يقول : «لوصح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ولكنى متردد فى أمرهم ، ولم تنعقد عندنا ذمة يهودى ولانصرانى منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندما يظهرون الإسلام ويصلون فى المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما فى صدورهم وتحويه بيوتهم»(١٤٠) .

لذلك أخذ الأمير إسماعيل بن فرج بن نصر[١٤١] من ملوك بنى نصر بغرناطة اليهود بارتداء شواشى صفر ليتميزوا بها[١٤٢] .

وباستثناء هذه الحالات البسيطة التى خضع فيها اليهود فى الأندلس لقوانين التفرقة فى المعاملة فإن كتب التاريخ جميعها قديمة ومحدثة أشادت بأن اليهود فى الأندلس عاشوا عصرهم الذهبى هناك وأنهم استظلوا برأيه التسامح الإسلامية . ولم يكن اليهود يعلمون أن بزوال الحكم الإسلامى من هذه البلدان سيرتدون إلى ما كانوا عليه من مذلة وهوان أيام حكم الرومان وسيحل بهم الاضطهاد ويتشردون فى البلاد وحين تشتد بهم الآلام يترحمون على أجمل الأيام التى عاشوها فى الأندلس فى عدل وسلام تحت ظل راية الإسلام .

هوامش الفصل الرابع

١ - David Cassel : Chisdai, The Son of Isaac, Abiographical Sketch, Miscellany of Hebrew Literature, Connecticut 1975, P. 73.

٢ - ذكر ابن عذارى (البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال، جـ٢ بيروت ١٩٥٠، ص١٧) أن اليهود كانوا يسكنون مدينة طليطلة منذ أن قضى الروم على دولتهم فى بيت المقدس وأنه قد هرب بعضهم إليها وحمل معه مخلفاتهم التاريخية الأثرية الدينية مثل التابوت الذى فيه بقية مماترك آل موسى وآل هارون وعصا موسى ونعلاه ومائدة سليمان التى كانت من الذهب وكلل أعلاها وأسفلها بالدر والياقوت .

٣ - كان بهذه المدينة حى لليهود عرف باسمهم قال فيه الشاعر أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦هـ) شعرًا ذكره المقري هو :

لقد أطلعوا عند باب اليهـود
بدرا أبي الحسن أن يكسفا
تراه اليهود على بابهــــا
أميرا فتحسبه يوسفــــا

وذكر المقرى أن المسلمين استقبحوا قولهم «باب اليهود» فقالوا «باب الهدى».

(المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ١ ، بيروت ١٩٤٩، ص ١٤٨).

٤ - استمر ذكر هذا الاسم فنجده يرد فى عهد حكم الأمير عبد الرحمن بن الحكم وعهد ابنه محمد ، أورده الخشنى فى كتابه قضاة قرطبة عند حديثه عن قاضيها سعيد بن سليمان الغافقى قاضى الجماعة بقرطبة الذى توفى

بها فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، ونص ما أورده الخشنى يفاد منه أن سعيد القاضى كان ينظر فى القضايا فى المسجد الجامع وأنه كان يعود إلى بيته ماشيا مخترقا باب اليهود وأنه التقى فى أحد المرات هناك بالفقيه سعيد بن حسان الذى كان منقبضا عنه ، توفى هذا القاضى فى السنتين الأوليتين لولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.

(الخشنى : قضاة قرطبة ، القاهرة ١٩٦٦، ص ٦٤).

٥ - ذكر ياقوت الحموى عنها قوله انها مدينة اليهود (شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية ، المجلد الأول ، بيروت ، ١٣٥٥هـ ، ص ١٠٧ - ١٠٨) .

٦ - كانت غرناطة تعرف - على ما ذكر ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار - باغرناطة اليهود لأن نازليها كانوا يهودا (الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧، ص ٢٣).

٧ - ذكر الحميرى قوله ان اليهود بمدينة برشلونة يعدلون النصارى كثرة وأن لهم ربضا خارجا منها (نفس المصدر السابق ، ص ٤٢) .

٨ - أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦١، ص ٥٢).

٩ - أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٢.

١٠- عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، القاهرة ١٩٦٤.

١١- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥٢٣.

١٢- أحمد بدر : دراسات فى تاريخ الأندلس ، ص ١٠.

١٣- حسين مؤنس : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٣.

١٤- حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص ٥٢١.

١٥- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد

الناصر ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٢.

١٦- ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، جـ٢ ، بيروت ١٩٥٠، ص١٧.

١٧- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٠٧.

١٨- مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧، ص١٢.

١٩- نفس المصدر السابق ، ص ١٤.

٢٠- نفس المصدر السابق ، ص ١٦.

٢١- David Cassle : Op. cit., P. 76.

٢٢- Spuler, B : TheDisintegration of the Caliphate in the East, The Cambridge History of Islam, V. I, Cambridge 1970, P. 144.

٢٣- Levi-Provensal : Histoire de L'Espagne Musulmane, T. III Paris 1953, P. 230.

٢٤ - حسين مؤنس : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥٢٤.

٢٥- نفس المصدر السابق ، ص ٥٢٦.

٢٦- انظر فيما بعد عند حديثنا عن حسيداى بن اسحق .

٢٧- David Cassel : Op. cit., P. 83.

٢٨- Ibid, P. 83.

٢٩- حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص٥٢٦.

٣٠- عرف باسم أبى الحسن النباهى المالقى الأندلسى ، رلد سنة ٧١٣هـ ، وكان معاصراً لابن الخطيب صاحب كتاب الإحاطة .

٣١- النباهى : تاريخ قضاة الأندلس، المعروف بكتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، بيروت (بدون تاريخ) - المقدمة ، ص ح .

٣٢- ذكر ابن الخطيب (أعمال الأعلام ص ٢٠) ان الأمير محمد بن عبد الرحمن بويع بالإمارة فى ربيع الآخر سنة ٢٣٣ هـ بينما ذكر ابن عذارى (البيان المغرب ، جـ٢ ،ص ١٤١، ١٤٢) أنه بويع يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ ، واتفق الاثنان على أن تاريخ وفاته كان يوم الخميس آخر صفر سنة ٢٧٣هـ ، وهو ابن خمس وستين سنة .

٣٣- النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٥٦، ٥٧، ٥٩ (عاش هذا القاضى تسعة وتسعين عاما وعشرة أشهر وكانت مدة قضائه منها على ما حكاه ابن عبد البر اثنين وثلاثين عاما)

وذكر الخشنى نفس القصة ولكنه زاد عليها أن الجارية كانت بنتا لليهودى (الخشنى : قضاة قرطبة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٧٣) .

٣٤- David Cassel : Op. cit., P. 82.

٣٥- عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٦٥.

٣٦- انظر للمؤلف : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٢-٣٥.

٣٧- هو عبد الرحمن بن محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ، ولقبه الناصر لدين الله وكنيته أبو المطرف . يقول عنه ابن الخطيب بأنه الذروة العليا فى ملوك بنى أمية وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين ثم اقتضاه من جاء بعده . توفى يوم الأربعاء ٢٨ رمضان ٣٥٠هـ عن عمر بلغ ٧٣ عاما وكانت أيام ولايته خمسين وسنه وستة أشهر وثلاثة أيام (لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٨ ، ٢٩، ٤٠.

٣٨- David Cassel Op. cit., P. 75.

٣٩- David Cassel Op. cit., P. 77.

٤٠- **Levi Brovencal : Op. cit., P. 230.**

٤١-عن دناش هذا أنظر فيما بعد .

٤٢- David Cassel Op. cit., P. 83.

٤٣- Levi Provencat : Op. cit., P. 231.

٤٤- David Cassel Op. cit., PP. 83-84.

٤٥- Ibid, PP. 84-85.

٤٦- Levi Provencal : Op. cit., P. 231.

٤٧- David Cassel Op. cit., P. 85.

٤٨- Ibid, PP. 86- 88.

٤٩- Ibid, P. 89.

٥٠- David Cassel Op. cit., P. 90.

٥١- هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى ولقبه أبو مناد وتسمى المظفر بالله الناصر لدين الله (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٠).

٥٢- H. Graetz : Minister - Rabbi Samuel Ibn Nagréla, Miscellany of Hebren Literature V. I, Connecticut 1975, P. 2.

٥٣- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ص ٣ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٦٤.

٥٤- Graetz : Op. cit., P. 3.

٥٥- Ibid, P. 5.

٥٦- Ibid, P. 6.

٥٧- Graets, Op. cit., P. 8.

٥٨- Graets, Op. cit., P. 10.

٥٩- ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٥، ص٤٤٧.

٦٠- Graets : Op. cit.., PP. 11-12.

٦١- ابن الخطيب : الإحاطة ، ص ٤٤٧.

٦٢- الإحاطة ، ص٤٤٥.

٦٣- البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥.

٦٤- الكلام علي لسان ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان (الإحاطة ، المجلد الأول، ص ٤٤٦- ٤٤٧) .

٦٥- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٨.

٦٦- هو أبو يحيى بن معن بن صمادح الملقب بالمعتصم، تغلب على المرية ولم يزل بها حتى أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهور سنة ٤٨٤هـ (عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، الكتاب الثالث، القاهرة ١٩٦٣، ص١٢٧) .

٦٧- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ص ٤٤٥ ، ٤٤٦.

٦٨- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٦٥.

٦٩- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٥٣١.

٧٠- البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٦٥.

٧١- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٤٦

كان ثغر المريه الثغر الكبير للأندلس وقد عنى به عبد الرحمن الناصر وكانت السفن البحرية تصنع فيه ، ولقد زخر هذا الميناء بتجارة البحر المتوسط وكان مركزًا شهيرًا للصناعة وخاصة صناعة المنسوجات الغنية التى كانت

تنافس المنسوجات البغدادية. وذكر أن هذا الثغر ازدهر فى عهد ملوك الطوائف فى ظل أمراء بنى صمادح وإلى ذلك العهد ترجع تحصيناته التى وصلت إلينا وبخاصة القصبة التى كان بها قصر كبير (مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى أسبانيا ، ترجمة لطفى عبد البديع، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣١٦).

ابن الخطيب : الإحاطة ، المجلد الأول ، ص ٤١٨.

٧٢- ابن بسام الشنتريني : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٤٢، ص ٢٧١.

٧٣- حفظت القصيدة المنسوبة إلى الولى العابد أبى إسحاق الألبيرى التى تظهر لنا من خلال أبياتها مدى سلطة اليهود على أيام ابن نغرالة ، وهى قصيدة نظمها أبو اسحق مخاطبا بها باديس ومحرضا له ولصنهاجه على ابن نغراله وعلى اليهود ، وهى قصيدة طويلة أوردها ابن الخطيب (فى كتابه أعمال الإعلام ص ٢٣١ ، ٢٣٢) ومن أبياتها :

ألا قل لصنهاجة أجمعيـــن

بدور الزمان وأســد العرين

لقد زل سيدكم زلــــــة

تقر بها أعين الشامتيـــن

تخير كاتبه كافــــــرا

ولو شاء كان من المؤمنيـــن

فعز اليهود به وانتخبـــوا

وتاهوا وكانوا من الأرذلـــين

ونالوا مناهم وجازوا المـدى

وقد جاز ذاك وما يشعـرون

ويقول عن عظم مكانة اليهود بغرناطة

وأنى احتللت بغرناطـــــــة

فكنت أراهم بها عابثيـــــــن

وقد قسموها وأعمالهـــــــا

فمنهم بكل مكان لعيـــــــن

وهم يقبضون جباياتهـــــــا

وهم يخصمون وهم يقصمون

وهم يلبسون رفيع الكســـــا

وأنتم لأوضعها لابســـــون

وهم أمانكم على سركــــم

وكيف يكون أمينا خـــــؤون

وصارت حوائجنا عندهــــم

ونحن على بابهم قائمـــــون

٧٤- أورد ابن الخطيب فى رواية أخرى أن ذلك كان سنة ٤٦٥ أو ٤٦٩ هـ وذكر أن قبره وقبر أبيه أمام باب البيرة وأن اليهود يعرفون موضعهما (أعمال الأعلام ، ص ٢٣٣).

٧٥- انظر ما سبق .

٧٦- ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ٢ ، طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، ص ٥٠.

٧٧- نفس المصدر السابق ، ص ٥٠.

٧٨- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٢، طبعة القاهرة ١٨٨٢ ، ص٥٢.

٧٩- نفس المصدر السابق ، ص ٥٠.

٨٠- نفس المصدر السابق ، ص ٥٠.

٨١- المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ٥ ، بيروت ١٩٤٩ ،

ص ٧٣.

٨٢- عيون الأنباء في طبقات جـ٢ ، ص ٥٠.

٨٣- نفس المصدر السابق ، ص ٥٢.

٨٤- The Jewish Encyclopeadia, V. IX, London 1916, P. 83.

٨٥- يقول ابن أبى أصيبعة (ص ٥٨٢) أن الرئيس موسى كان قد أسلم فى المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقة ثم لما توجه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر ارتد إلى اليهودية وأيده القفطى فى هذا الرأى (القفطى، تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣، ص ٣١٨) .

٨٦- The Jewish Encyclopeadia, IX, P. 74.

٨٧- Dubnov, S, The History of the Jews, P. 819.

٨٨- عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٩٤٣، الترجمة الخاصة بالمؤلف والملحقة بالكتاب عن المؤرخ ابن أبى أصيبعة ، صفحات هـ ، و .

٨٩- Dubnov : Op. cit, P. 353.

٩٠- Boul Borchsenius : The Three Rings, P. 117.

٩١- Graetz : Op. cit., P. 3.

٩٢- Ibid, P. 9.

٩٣- Ibid, P. 3.

٩٤- Dacid Cassel, Op. cit., P. 82.

٩٥- Levi Psovencal : Op. cit., P. 231.

٩٦- Dubnov : Op. cit., P. 760.

٩٧- انظر ما قبله

٩٨- Graetz Op. cit., P. 11.

٩٩- Ibid, P. 11.

١٠٠- Graetz : Op. cit., P. 9.

١٠١- البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٦٤.

١٠٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ٥ ، بيروت ١٩٤٩ ،ص٦٩.

١٠٣- المقرى : نفح الطيب ، جـ٥ ، ص ٦٩.

١٠٤- المقرى : نفس المصدر السابق ، ص٦٦.

١٠٥- نفسه ، ص ٦٨.

(مات ابن سهل هذا غرقا سنة ٦٤٩هـ وهو فى سن الأربعين وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم) .

١٠٦- نفح الطيب ، ص ٦٦ -٦٨.

١٠٧- نفح الطيب ، جـ٥ ، ص ٧٣، ٧٤.

١٠٨- نفس المصدر السابق ، ص٧٢.

١٠٩- نفس المصدر ، ص ٧١.

١١٠- حكى المقرى (ص٧٢) عن إبراهيم هذا أنه قال أدخلونى على الخليفة المستنصر فوجدته فى قصره غاية الحسن كأنه الجنة ورأيت على بابه بوابا فى غاية القبح . فلما سألنى الوزير عن حال فرحتى قلت له أنها طيبة الا أنى سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان وهذه على بابها مالك فضحك وأخبر الخليفة بما جرى فقال له : قل له أنا جعلنا عليها مالك ليدخل الينا فلو كان رضوان عليها بوابا لخشينا ان يرده عنها ويقول له ليس هذا موضعك ولما كان هناك مالك أدخله فيها وهو لا يدرى أنها جهنم . قال فلما أعلمنى الوزير قلت له : الله أعلم حيث يجعل رسالاته .

١١١- أنظر ما قبله عنهما .

١١٢- Levi Provencal, PP. 231-232.

١١٣- A. D. Neubauer : Specimen of the Book Cusan, I, PP. 4-12, Miscellany of Hebrew Litterature, P, 63.

١١٤- الإحاطة ، المجلد الأول ، ص ٤٤٦.

١١٥- الإحاطة ، المجلد الأول ، ص ٤٤٨.

١١٦- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٧٦.

١١٧- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، طبعة القاهرة ١٨٨٢ ،ص ٥٠.

١١٨- Dubnov : History of the Jews, V. IV, PP. 797 - 813.

١١٨- Poul Borchsenius: The Three Rings, The History of the Spanish Jews, London 1954, P. 116.

١١٩- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ومذاهبه ، القاهرة ١٩٧١، ص ١٠٤.

١٢٠- Poul Borchsenius : Op. cit., P. 125.

١٢١- Poul : Op. cit., P. 133.

١٢٢- القفطى : أخبار الحمكاء ، ص ٧٩.

١٢٣- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ١٥٨ - ١٦٣.

١٢٤- Dubnov : Op. cit., . 819.

١٢٥- Goitein : Jews and Arabs, P. 182.

١٢٦- G. V. von Grunebaum, Classical, A History 600 - 1258, London 1970, PP. 120-122.

١٢٧- G.M. Wicjens : The Middle East as a world Centre of Science and medicine, Introduction to Islamci Civilisation, Cambrldge 1975, P. 113.

١٢٨- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥٢٧.

١٢٩- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤٢.

١٣٠- نفس المصدر السابق ، ص ٤٢١.

١٣١- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١٥-١٢٠.

١٣٢- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨.

١٣٣- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ص ٤٠٤.

١٣٤- لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص٣٥.

١٣٥- أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٤.

١٣٦- لما نقل الكلام ابن عباد لم يملك نفسه وأمر بالقبض علي ابن شاليب ومن معه وأمر بقتلهم وبذل اليهودى في نفسه أموالا خطيره فلم يصغ ابن عباد له وشفى منه نفسه (ابن الخطيب ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٤) .

١٣٧- المقرى : نفح الطيب ، جـ٥ ، ص٧١.

١٣٨- أورد ابن الخطيب نص رد ابن وقـار له علي خطابه في كتـابه أعـمـال الإسلام ، ص٣٢٢ وما بعدها .

١٣٩- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣، ص ٣٨٣.

١٤٠- عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٣٨٣.

١٤١- هو إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الخزرجى ، بويع يوم الخـمـيس ٢٧ شـوال سنة ٧١٣هـ وتوفى يوم الاثنين ٢٦ رجب ٧٢٥هـ .

١٤٢- ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ص ٣٩٦.

مصادر الفصل الرابع

* ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، القاهرة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.
* ابن بسام (الشنتريني) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ، القاهرة ١٩٤٨.
* ابن الخطيب (لسان الدين) : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥.
* ابن الخطيب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦.
* ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٠.
* أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦١.
* حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ومذاهبه ، القاهرة ١٩٧١.
* حسين مؤنس : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٥٩.
* الحميرى (عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧.
* الخشنى (أبو عبد الله محمد بن حارث) : قضاة قرطبة ، القاهرة ١٩٦٦.
* شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية ، بيروت ١٩٥٥هـ.

* **عبد الحميد العبادى** : المجمل في تاريخ الأندلس ، القاهرة ١٩٦٤.
* **لطفى عبد البديع** : الإسلام فى أسبانيا ، القاهرة ١٩٥٨.
* **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلي بداية عهد الناصر ، العصر الأول – القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٠.
* ــــــــــ : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٦٤.
* **المقرى** : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٤٩.
* **مؤلف مجهول** : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، مدريد ١٨٦٧.
* **النباهى (أبو الحسن)** : تاريخ قضاة الأندلس ، المعروف بكتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، بيروت (بدون تاريخ).

- **David Cassel** : Chisdai, The Son of Isaac, Abiographical Sketch, Miscellany of Hebrew Literature, Connecticut 1975.
- **Dubnov, S** : The History of the Jews, V. IV.
- **Graetz, H** : Minister- Rabbi Samuel Ibn Nagréla, Miscellany of Hebrew Literature, Connecticut 1975.
- **Levi Brovencal** : Histoire de L'Espagne Musulmane, T. III, Paris 1953.
- **Poul Borchenius** : The Three Rings, The History of the Spanish Jews, London 1954.
- **Spuler, B** : The Disintegration of the Caliphate in the East, The Cambridge History of Islam, V. I, Cambridge 1970.
- The Jewish Encyclopeadia, V. IX London 1916.
- **Von. V. G. Grunebaum** : Classical Islam, A History 600 - 1258, London 1970.
- **Wickens, G. M** : The Middle East as a world Centre of Scince and medicine, Cambridge 1975.

من إصدارات المركز :

* ظاهرة النبوة الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* جامع التعريب	تحقيق وشرح نصوص أونال قره أرسلان
* دليل وثائق الجنيزا	لجنة الجنيزا بالمركز
* الحساب القومى	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الشخصية الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* الصهيونية الدينية	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الحركة الصهيونية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* المجتمع الإسرائيلى	ترجمة د. / محمد أحمد صالح
* اسلام حقائق اور الزامات	ترجمة د. / يوسف عامر
* أدب المهجر الشرقى	تأليف د. / محمد عبد الرحمن الربيّع
* الكلام والفكر والشىء	ترجمة د. / محمد صالح الضالع
* قاموس المختصرات العبرية	إعداد د. / شعـبان محمد سـلام
* الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية	نقله إلى العربية د./ أحمد محمود هويدى
* حكايات أيسوبوس	ترجمة ودراسة د./ صلاح محجوب
* البعد الدينى للصراع العربى الإسرائيلى	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* اتجاهات التراجم والتفاسير القرآنية فى اللغة الأردية	تأليف أ.د / سمير عبد الحميد إبراهيم
* الجنيزا والمعابد اليهودية فى مصر	تأليف أ.د/محمد خليفة حسن والأستاذ النبوى سراج
* سياسة إسرائيل فى طرد السكان العرب	ترجمة وتعليق د. محمد أحمد صالح
* الرموز الدينية فى اليهودية	تأليف أ.د/ رشاد عبد الله الشامى
* الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى الحاضر والمستقبل	تأليف أ.د/ أحمد فؤاد متولى ود. هويدا محمد فهمى
* المشكلة الكردية	ترجمة وتعليق / أ.د محمد علاء الدين منصور
* المسرح الإيرانى	تأليف / د. عبد الوهاب علوب .
* الأدب الفارسى عند يهود إيران	ترجمة / أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
* الصراع الدينى العلمانى داخل الجيش الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد محمود أبو غدير

* الأقليات المسلمة والصراعات فى الكومنولث — تأليف د. / هويدا محمد فهمى
* الشخصية الفلسطينية فى القصة العبرية القصيرة — تأليف د./ محمود على صميده
* مستوطنة معالية أدوميم وانتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى — ترجمة د. / عبد الوهاب محمود وهب الله
* يهود مصر « دراسة فى الموقف السياسى » — تأليف د. / محمود عبد الظاهر
* فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى — تأليف د. /محمد جلاء إدريس
* التركمـان بـين الماضى والحاضر — ترجمة وتعليق أ.د/ عبد العزيز محمد عوض الله
* التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية — تأليف: نفتالى فيدر/ترجمة: د. محمد سالم الجرح

* رسالة المشرق « مجلة دورية محكمة »

رقم الإيداع	٢٠٠١/٩٧٦٨

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت : ٧٧٩٧٥٥٠